الفصل السادس

بين الداخل والخارج

تابعنا في الفصل الأخير ملابسات المصالحة الوطنية التي احتوت على مفاوضات مطولة بدءاً بيوليو ١٩٧٧م ولكن لم تثمر إعلاناً رسمياً إلا في يوليو ١٩٧٨م أي بعد نحو عام من اللقاءات والمداولات والتكهنات التي تخللتها نكسات تابعناها. ثم ما لبثت أن وصلت المصالحة إلى طريق مسدود وتم إعلان إخفاقها على الملأ في أكتوبر ١٩٧٨م، أي بعد ثلاثة أشهر من الإعلان الرسمي عنها.

في الفترة ما بين أواخر ١٩٧٨ وحتى ١٩٨٣م والتي يعالجها هذا الفصل سنجد السيد الصادق في حالة تنقل دائب بين الداخل والخارج. وكانت نشاطاته متنوعة، فبعضها تنظيمي، وبعضها فكري، وبعضها دبلوماسي، وبعضها سياسي، وبعضها إعلامي، وكلها تصب رياً للقضايا التي يرفع راياتها دينياً ووطنياً.

بعد إعلان فشل المصالحة الوطنية في أكتوبر ١٩٧٨م، غادر السيد الصادق البلاد متجهاً إلى ليبيا ضمن مجهوداته لتذليل عودة المهاجرين في المعسكرات هناك وقد عرقلت السلطات الليبية إجراءات عودتهم.

في تلك الفترة وفي الرابع من ديسمبر ١٩٧٨ ولد بشرى أخي آخر العنقود، والسكر المعقود.

الشاهد، توجه السيد الصادق من ليبيا إلى بريطانيا، وضمن أوراقه وجدت محاضرة قيمة ألقاها بمعهد الشؤون الخارجية البريطانية في مارس ١٩٧٩م بعنوان (الإسلام والتحول الاجتماعي) وكان ذلك في ١٣ مارس ١٩٧٩م.

هذه المحاضرة مع أهميتها لم تنشر ولكننا وجدناها مكتوبة بين أوراق السيد الصادق. واكتفي بإيراد مدخلها الرائع: (*نهض الإسلام نهضة لم تعرف البشرية لها مثيلاً، ودق باب التاريخ وفتحه على مصراعيه، فتدفق المسلمون حيوية أسمعت العالم المعمور دعوة*

الدين الخاتم، واستوعبت معارف الإنسانية وفلسفاتها استيعاباً جعل آبيلارد الأوروبي «من علماء القرن الثاني عشر الميلادي» يظن أن كلمتي مسلم وفيلسوف مترادفتين. حيوية أحاطت بتراث الشرق العتيق حتى أن مونتجمري و. وات قال: «إن في استيعاب الحضارة الإسلامية لحضارات الشرق الأوسط العتيق وفلسفتها لسحراً». لقد أعاد الإسلام في نهضته بناء النظام الاجتماعي مجدداً حتى أن و.س. سميث قال: «لقد كان البرنامج الاجتماعي الإسلامي أوسع البرامج وأكثرها جدية وتصميماً لتحقيق العدل الاجتماعي بين البشر». لقد نوع المسلمون ووسعوا النشاط الاقتصادي مما حمل م. رودونسون على وصفهم بقوله: «لقد أقاموا أوسع سوق عالمي عرفه البشر قبل قيام النظام الرأسمالي الحديث»).

وفي المحاضرة نقض لأسس التنمية والتحول الاجتماعي الليبرالية، والشيوعية، والقومية، وإبراز للدور الحتمي للإسلام، وأنه الباعث خلف الثورات والتحولات الأساسية في العالم الإسلامي، متعرضا للشبهات المثارة أمام البعث الإسلامي في العصر الحديث.

ويبدو أنه بقي في إنجلترا لبضع شهور. يذكر السيد غراهام توماس أنه كان في زيارتهم في يونيو ١٩٧٩، وبعد ذلك غادر بريطانيا ليقوم بجولة في البلدان العربية: السعودية، الأردن، العراق، وفي إيران. (وقد أمر الملك السعودي خالد بفرش البساط الأحمر إكراماً له)[١]. ثم سافر للأردن حيث قابل الملك حسين وشقيقه وولي العهد حينها الأمير الحسن، وقد ترك الأمير الحسن انطباعاً قوياً في نفس الصادق، وانعقدت بينهما صداقة حميمة. أما بخصوص آيات الله والقادة الإيرانيين، فقد كانت وجهة نظر الصادق أنهم: لا يفقهون الشئون الدولية في العالم وأنهم جيدون ولكن نظرتهم إقليمية صرفة[٢].

فاجعة رحيل الأمير نقد الله

خرج السيد الصادق من الخرطوم في أواخر عام ١٩٧٨م مغاضباً، وتنقل كما ذكرنا بين العواصم، ولكنه اضطر للعودة لأم در، لتشييع ذلكم الطود الأنصاري والرقم المهم

(١) توماس، سابق ص ١٩٣

(٢) نفسه ص ١٩٣

في حزب الأمة. الرجل الذي التحمت خطاهما معاً في مسيرة الأهوال، واقتسم كل أقساط الأذى معه. جمعتهما صداقة ومحبة عظيمتين، هزئت بفارق الأجيال، وقربت المسافات.. وكثيراً.

يقول توماس: وفي أغسطس ١٩٧٩ ذهب الصادق على غير رغبة منه وإنما مضطراً لأن يذهب بحكم وفاة الأمير عبد الله نقد الله. (وكان نقد الله هذا ركيزة عظيمة لحزب الأمة منذ الأيام الأولى، وسيكون فقدانه خسارة كبيرة. وكان الصادق مقتنعاً بأنه قد يسحب النظام ثقته منه أو يقوم بتصفيته، ومع هذا فهو مجبرٌ على أن يقدم احتراماته وعزائه لعائلة نقد الله الفقيد)[١].

قال السيد الصادق في تأبينه:

في ضواحي الخرطوم وجيوش التحرير تطوقها اجتمع الإمام المهدي بالأحباب وطالبهم قائلاً: بايعوني على عتق الرقبة على قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[٢] وذلك إعداداً للتضحية الكبرى لخوض معركة تحرير الخرطوم.

وفي تلك المناسبة أبن الأمير عبد الله ود النور بقوله ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾[٣] كعبد الله ود النور ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ كعبد الله ود إبراميم ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾.

نستلهم الوحدة الموضوعية في هذا التاريخ، ونسوق هذه الآية الكريمة في تأبين أميرنا الراحل الأمير عبد الله نقد الله بقوله ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[٤].

إن مدخلي للحديث عن الأمير الراحل هي وحدة هذا التاريخ الذي كان تياراً في نهر

(١) نفسه ص ١٩٤
(٢) سورة الحديد الآية ٢٣
(٣) سورة الأحزاب الآية رقم ٢٣
(٤) سورة الأحزاب الآية رقم ٢٣

من دعوة قامت على هذا البعد من مصدر الدعوة الإسلامية، لتجسد على فترة من الزمان الشباب الإسلامي وهذا هو المعنى الأول.

والمعنى الثاني أنها دعوة كرست ولخصت ثم ارتقت بتراث الفروسية السودانية إلى القمة، ذلك التراث الذي عرفه أهل هذا البلد وعن طريقه سمع صداهم في كل أنحاء المعمورة.

المعنى الثالث الذي ينقله إلينا ذلك التاريخ هو أنه أبرز وأوضح وحقق عبقرية الرجل العادي: المزارع العادي، والعامل العادي، والرجل العادي، فصار عن طريق تلك الدعوة قائداً يقود الجيوش ويخطط ويهزم كل أولئك الذين درسوا العسكرية والإستراتيجية في معاهدها، وبسم الله وإرادة الشعب يخط حياة جديدة.. تفوق أولئك النفر من الناس العاديين تفوقاً تاماً كما أشعلت الدعوة الأولى بذلك النور في النفوس تحول الرجال العاديين الذين كانت تضحك عليهم الأمم، فأشعلت الدعوة في نفوسهم ما جعلهم يدكون حصون الروم، وفارس، ويغرسون دعوة نورها حتى اليوم يشع ويفيض ويتقدم.

وكما أن الدعوة الأولى في الصدر الأول للإسلام ربطت رباطاً لا ينفصل بين قومية العرب ودين الإسلام، فجعلت للعرب في التاريخ أقوى وأعظم سيرة، وأكبر وأهم دور، وبذلك جعلت كل مفاخرهم بادئةً بالإسلام، فكانت بذلك رباطاً نهائياً لا ينفصل بين دين الإسلام وقومية العرب، كما أن ذلك حدث في السودان ربطت الدعوة المهدية بين الدين الإسلامي و الوطنية السودانية، لأنها أعلت شأن السودان بصورة لم يسبقها إليه أحد في الوطن.

وهذا هو ما يلخص شخصية فقيدنا. فقد كان على تقواه وإخلاصه للإسلام، قوي الوطنية السودانية، وهذا الرباط القوي بين الدين الإسلامي وما غرس، وبين الوطنية السودانية كان بعض ما حققت تلك الدعوة وآثارها.

المدخل الثاني في حديثي عن الأمير الراحل هو أننا كأفراد لسنا أفراداً في الحقيقة، فكلنا جزء من كيان يعيش في تيار أكبر، لذلك فقضيتنا تضيع في ذلك التيار. التيار الذي حركه وتعهده أئمة هذا المشهد الذي نجتمع فيه اليوم.

فالإمام محمد أحمد المهدي جدد شباب الإسلام وسار، في هذا الدرب كما يقول المثل السوداني من الركاب إلى التراب.

وخليفته عبد الله حمى الدعوة والدولة، وواجه الموت مرة ولا حياة مرة. وعبد الرحمن الصادق بعث الدعوة وبعث لاستقلال السودان، وكان إذ أدركه الوهن وهو يناضل في أخريات أيامه يتلمس صحة يغالب بها ويعمل، يقول:

ولي كبد مقروحة من يبيعني غيرها كبداً ليست بذات قروح

اباها عليّ الناس لا يشترونها ومن ذا يشتري ذا علة بصحيح

والصديق، الذي أودت بحياته طعنة المولد: هجوم مدججين على عزل. فمات يردد: حققوا مطلب الأمة وليس لكم حق في سلبها.

والهادي: الذي كرر حتى آخر اللحظات قد وفيت اللهم فاشهد.

تراث لعب فيه فقيدنا دور الساعد الأيمن في كثير من حلقاته.

تراث عناه أبو تمام في تفضيل الشجاعة على السخاء:

كم بينَ قومٍ إنما نفقاتهم مَالٌ وقَومٌ يُنفِقُونَ نفُوسَا

ومن تلك الحلقات التي لعب فيها أميرنا الراحل دوراً دوره في الحركة الاستقلالية. كان يمثل مع جماعة أخرى من الشباب قوة متحمسة داخل التيار الاستقلالي حتى تكون بتشددها قادرة على دفع التيار العام للحركة الاستقلالية.

وكان له دور آخر أيضاً في بناء قوة وصمود الأنصار تحت توجيه الإمام عبد الرحمن، لأن تراث الأنصار دائماً ينطوي على وجهين: وجه جهادي، ووجه رحماني. لقد كان هو من الذين بنوا الوجه الجهادي في صفوف الأنصار.

وكان له دوره في الوحدة الوطنية لان الحركة الوطنية بمفهومنا كانت تعني أن السودانيين جميعاً تحركوا لإنتزاع سيادة بلادهم من المستعمر الدخيل، وفي لحظة حاسمة من تقدم البلاد وتأريخها أجمع كل من كان يدعو بالاستقلال والاتحاد على الاستقلال، فكانوا بذلك كأنهم حاصروا العدو وانتزعوا حقوقهم بهذه الوسيلة.

كان الأمير الراحل مهتما جداً بالوحدة الوطنية، وعندما قام انقلاب ٢٥ مايو، واعتقل، استدعاه مجلس الثورة بعد أن اعتقله واعتذر له عن ذلك الاعتقال، وتحدث معه حديثاً جاء الأمير إلينا في الجزيرة أبا ليقول قد أتصل بي هؤلاء الأخوة وأنا أرى سبيلاً للتفاهم، فأرجو تفويضي بذلك ولم يكن كما قيل إنه جاء لإقناعي أنا شخصياً بالحضور للخرطوم ليتولى ذلك الدور، وإنما جاء ليفوض. ولكن كان قد سبقه وصول الفاتح عابدون مرسلاً من قادة البلاد آنذاك ليقنعني أن افتح حواراً ودياً للوصول إلى اتفاق. على أي حال رأينا أن أحضر إلى الخرطوم استجابة لهذه الدعوة، وبالطبع ذلك المشروع وعد ولم يحقق ما رجي منه، لكن المهم مسعى الأمير كان جاداً في إيجاد مخرج سلمي للبلاد من تلك المرحلة الحرجة.

ودوره أيضاً أنه كان المتحدث باسم الإمام عبد الرحمن في المناسبات المختلفة. ودوره أيضاً المتحدث باسم الأنصار في المحافل الدولية.

هذا التراث وهذا العمل وهذه الأدوار لا يمكن أن تنسى وقد قام الأمير الراحل فيها بما قام بإخلاص وجد واجتهاد.

هذا التراث الذي نتحدث عنه تراث له قدره في توحيد الكلمة. وإن صيغ هذا القدر في ظروف الزمان المختلفة. فالإمام المهدي كان يقول تحقيقاً لوحدة الكلمة هذه ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ ويحكي قصة إذا ما كان يشرب الناس من زمن متفرق وقد فاض النهر فهل يشربون من تمدهم أم يشربون من النهر؟ يريد بذلك توحد الكلمة لبناء الدين في السودان.

وفي مرحلة لاحقة كان التعبير عنها ما قاله الإمام عبد الرحمن في قولته المأثورة (لا شيع ولا طوائف ولا أحزاب ديننا الإسلام ووطننا السودان).

لهذا التراث قدر جهادي يثيره ضمن ما يثيره العداوات والاضطهاد، وقدر رحماني إذا ما وجد التسامح والتفاهم ركن إليهما وأطمئن إليهما فكأنما قصده العربي بقوله:

كالسيف إن لا ينته لان متنه ... وحداه إن خاشنته خشنان

والمدخل الثالث في الحديث عن الأمير الراحل: هو أنه كان يؤلف بين متناقضات واضحات في طبعه. كان فقيراً في ماديته غنياً بما في قلبه عفيفاً، جمع بين هذا الفقر وهذه العفة،

فقد رأينا كيف أن كثيراً من الناس عندما تولوا مسئولية نسوا تماما العفة والانضباط.

كان الأمير حازماً كأنه عسكري لم يدخل الجيش، جندياً لم يدخل الجيش، وفي نفس الوقت كان مؤاخياً ودوداً بشوشاً كأنما في تعامله لا يأخذ بالحزم ولا بالعزم ولا بالضغط.

كان قوي الاعتقاد في معتقداته، ولكنه في نفس الوقت مرناً في التعامل مع خصومه. جمع بين قوة الاعتقاد ومرونة التعامل مع الآخرين.

هكذا الفضيلة. فالفضيلة دائماً توفيق بين متناقضات. بين الجبن والتهور تقع الشجاعة، وبين البخل والإسراف يقع الكرم، وهكذا. عندما تحدث سقراط لتلامذته يبحث الخلق القويم ويقول إنما هو توفيق بين متناقضات فقالوا له: أين يقع الحد بين متناقضين فتكون فضيلة لا رزيلة؟ قال: يصعب أن نحددها نظرياً فإذا أردت أن تكون فاضلاً فابحث عن رجلٍ فاضلٍ وقلده.

رحم الله الأمير، فكأنما وصفه أبو محجن:

لا تسأل الناس ما مالي وكثرته ... وسائل القوم ما حزمي وما خلقي

فد اركب الهول مسدول عساكره ... واكتم السر فيه ضربة العنق

والمدخل الرابع في حديثي عن الأمير الراحل: هو أن بلادنا تواجه محناً كثيرة، وأزماتها تزداد فكم نفتقد في مواجهتها جلد الأمير الفقيد الذي كأنما وصفه السليمي:

نمرست بالآفات حتى تركتها ... تقول أمات الموت أم ذعر الذعر

نفتقد تمرس الفقيد الذي واجه حياة مملوءة بالشدائد والمشاق والمعضلات والآفات.

رحم الله الأمير في يوم شكره يوم يوجب الشرع الشكر. سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَائِشَةَ، وَهِيَ تَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ زُهَيْرِ بْنِ جَنَابٍ الْكَلْبِيِّ:

ارْفَعْ ضَعِيفَكَ لا يَحْرِبْكَ ضَعْفُهُ ... يَوْمًا فَتُدْرِكُهُ الْعَوَاقِبُ مَا جَنَى

يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنَّ مَنْ ... أَثْنَى عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الشِّعْرُ الَّذِي كُنْتِ تُمَثِّلِينَ بِهِ قَالَتْ: أَنْشَدْتُهُ إِيَّاهُ،

فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ لا يَشْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى، مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ.

المدخل الخامس في حديثي عن الأمير الراحل: ربما وقف المحزون يقول:

لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وكل الذي دون الفراق قليل

وإن كل افتقادي واحدا بعد واحد ... دليل علي أن لا يدوم خليل

ولكن هيهات!

الصبر علي الشدائد والأحزان في عرف الإسلام طريق للفضائل، والتعرض للمحن دليل خير (أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل). روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أهدى له بعض الناس بنته ليتزوجها، فقرظها ضمن ما قرظها به وامتدحها ضمن ما امتدحها به قائلاً بين ميزات هذه البنت أنها ما مرضت قط فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه لأن في المرض دليلاً علي هذا البلاء المذكور والمشار إليه. وكما حكيت أن من يواجه النكبات والشدائد تزرف هذه الشدائد والنكبات بقدرتها وقوتها في نفسه أعماق وأغوار تجعله أكثر إنسانية وأوسع قدراً وأكثر رحمة.

القول المذكور في هذا الصدد أن المزايا في طي البلايا والمحن في طي المنن. والله سبحانه وتعالي يقول ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

إننا في بلادنا اليوم نواجه ظروفا صعبة. نواجهها في ظروف بلادنا الداخلية، ونواجهها في ظروف أمتنا الخارجية. إذ يتصدى الخصم ويلعب بالوطن الأكبر ويتاجر به وبتاريخه كله. هذا هو الذي يجعلنا في حيرة من مستقبلنا. ولكن مهما كانت الحيرة فالعزيمة علي التغلب علي هذه الشدائد والمشاق هي جزء من الإيمان، ولا بد أن نستمد من كل تاريخنا هذا ما يمكننا أن نسير في هذا الدرب أقوياء بالشدائد لا ضعفاء.

وكما ذكر بعض الإخوة فان هناك شمعة تضيء الآن في بلادنا. إن المصالحة الوطنية قد أزالت من وجه بلادنا قدراً عاجلاً. ذلك القدر الذي قد كان فرق بين قاتل ومقتول حتماً، فقد أورثت تسامحاً ومقداراً معلوماً من الحرية. ولكنها لم تبلغ بعد هدفين

(١) سورة يوسف الآية ٨٧

أساسيين هما: أسس ونظام يوحد إرادة أهل السودان، وبرنامج يعالج قضايا البلاد علاجاً جذرياً.

إننا إذ نخاطب روح فقيدنا سنظل جادين في السير مهما طال الطريق لتحقيق ذينك الهدفين، وتوحيد إرادة أهل بلادنا حولهما، حتى نتمكن من بناء هذا الوطن العزيز والعظيم الذي من واجبنا أن نخدمه بكل ما نستطيع وما نقدر.

ختاماً: أناجي روح فقيدنا، يا عبدالله يا فقيدنا، هنالك آيات كان حبيبك الإمام عبدالرحمن الصادق يحبها، يحب أن يتلوها وأن تتلى علي مسامعه، نتلوها ونرجو أن تكون في زمرة هؤلاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[1]

رحم الله الأمير نقد الله، ذلك الفارس الذي ترجل من الركاب وإلى التراب، وكانت المعركة لا تزال تحتدم. وسوف تفتقد بدره تلكم الليالي الظلماء.

لتكن نائبي وخليفتي

في وقت ما بعد إعلان فشل المصالحة، ولعل ذلك في عام ١٩٧٩م وفقما يوحي رصد السيد غراهام توماس، أو عام ١٩٨٠م وفقما يرجح السيد الصادق، فإن النميري عرض على السيد الصادق أن يكون خليفته ونائبه، ذاكراً له بأنه ليس هناك ممن هم حوله من يصلح لهذه المهمة مثله.. قال الصادق للنميري: في ظل الدستور الحالي فإن منصبك نفسه لا يناسبني! فالرجل يبحث عن نظام ديمقراطي لا عن كرسي!

السيد غراهام يروي القصة بأن الصادق أكد له أن نميري تحدث معه عن (خلافة مرتبة) ووعد بشكل قاطع بإجراء إصلاحات في السودان. وقال الصادق إنه عرض على نميري شروطه بوضوح، ورغم ذلك فقد ظل لدي انطباع واضح مفاده أن الصادق لا نية له من أن يكون مديناً للرئيس نميري أو نظامه الذي تلطخ بالدم والفساد[2].

(١) الآيات (١٠١-١٠٣) من سورة الأنبياء

(٢) توماس، ص ١٩٣

أما النميري فإنه ذكر الحادثة بطريقته كذلك إذ تحدث عن الصادق المهدي قائلاً: (أنا قلت له إذا كنت تريد أن تكون حاكماً قومياً تعال تعاون معي وأنا أعلمك. أنا لا أريدها وقد عرضت عليه أرفع المناصب، وفتحت له باب المساهمة في العمل العام على مصراعيه ولكنه آثر أن يعيش بعقلية الماضي.[1])

أما السيد الصادق فقد روى الحادثة بقوله: (زارني السيد جعفر نميري ومعه السيد فتح الرحمن البشير في منزلي، وقال لي يا فلان، أنا لا أرى فيمن معي من يصلح لخلافتي وقيادة البلاد ولذلك أعرض عليك أن تكون خليفتي وأن تكون نائبي في رئاسة الجمهورية. قلت له يا أخي الرئيس.. أنا في ظل الدستور الحالي ما لم يتغير لدستور ديمقراطي، لا أوافق على منصبك نفسه)[2]!

معارضة من الداخل والخارج

استمرت المعارضة المدنية لحزب الأمة بعد وضع السلاح في المصالحة الوطنية عبر خطين داخلي وخارجي.

أما داخلياً فقد كانت عبر اللقاءات الجماهيرية والمخاطبات خاصة في الأعياد، وعبر العمل الطلابي. فقد بدأت في الفترة (١٩٧٧- ١٩٨٣م) المعسكرات التنظيمية الطلابية التي تم فيها تأهيل الكادر عبر معسكرات عديدة.

وكانت هذه الفترة هي التي وضع فيها أساس الحركة الطلابية لحزب الأمة التي انتعشت لاحقاً، وقبلها كان الوجود الطالبي للحزب ضعيفاً بشكل كبير.

وقام السيد الصادق بتنظيم محاضرات في القضايا الفكرية المختلفة على الكادر الطلابي القيادي. وكان يهتم لدرجة قصوى باللقاءات التفاكرية معهم حول القضايا المختلفة، ويستكتبهم في مناقشة الأفكار تحفيزاً لهم على الاطلاع والتفكير، وزرعاً للثقة في أنفسهم. وكان يشارك في إلقاء المحاضرات في الجامعات ولعل من أهم أعماله الفكرية في هذا الوقت كانت محاضرة (العلمانية الجذور والأبعاد) التي ألقاها على طلاب جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٧٩م.

---

(١) لقاء أجراه فهمي هويدي ونشر في الوطن المصرية في ١٦/ ١٢/ ١٩٨٤م

(٢) شاهد على العصر مع الإمام الصادق المهدي، الحلقة الحادية عشرة في ٤ أكتوبر ٢٠١٥م.

وكان السيد الصادق كما قلنا موزعاً بين الداخل والخارج في زيارات لدول أجنبية للمساهمة في بعض النشاطات مثل زياراته المتكررة لطرابلس وجنيف بحثاً لقضايا تموين وعودة المهاجرين، أو نشاطات دبلوماسية، أو لإلقاء المحاضرات أو حضور المؤتمرات.

بينما أبقى السيدة سارا بالخارج وكانت ذهبت لإنجلترا في رفقة والدته السيدة رحمة للعلاج، وحكت أمي سارا أنه قال لها حول تلك الرحلة: إنني لا أئتمن على أمي شخصاً غيري سواك. وبالفعل ذهبا للعلاج، وكانت معهما حاجة السارة بنت باب الله رفيقة عمر أمي رحمة، وعمي بدر إسحق وزوجته الخالة فاطمة بنت رشيد. وهناك افتتحت أمي سارا مكتباً للحزب يدير معارضة النظام. نشط هذا المكتب جداً وكان يشرف على طباعة كافة الأدبيات التي يخطها السيد الصادق وإرسالها للسودان.

كما استمر قادة الحزب يشاركون بالرأي وبالتعبئة في معارضة السياسات القائمة الاقتصادية والاجتماعية والصحية وغيرها. مثلاً في ديسمبر ١٩٨٢م شارك الصادق في المؤتمر الاقتصادي الأول وقدم كلمة فيها نقد لاذع لأداء النظام.

أول خطوات التعرف

ذكرت أن بعضنا –من أبناء السيد الصادق وبناته– كان يزوره أيام المعتقلات في بورتسودان وغيرها. ثم نظّم لملاقاتنا في مصر، ولكن بعد عقد اتفاقية كامب ديفيد قاطع السيد الصادق مصر، وكان مشفقا علينا من الصدمة الحضارية لو ذهبنا أوربا. فخطط ليلاقينا في الإجازة الصيفية عام ١٩٧٩م في المغرب، ومن هناك ذهبنا عبر مضيق جبل طارق بالسفينة إلى أسبانيا، وكانت تجربة مدهشة، فهي أول مرة ركبنا فيها البحر، وفي أذهاننا قصة طارق بن زياد يوم قال البحر أمامي والعدو خلفي فأين المفر؟ ثم كان ركوبه البحر الذي ساق الإسلام إلى تلك البلاد ذات الحدائق الغناء.

قطعنا المضيق في زمن قصير ثم وصلنا أسبانيا.. وقصد الوالد الحبيب أن نشهد فيها قصور غرناطة وقرطبة ونطلع على مجد المسلمين في الأندلس.

لقد كان قصر الحمراء بغرناطة هو الشيء الذي لن أنسى دهشته أبداً، شيء بديع زحم رؤاي بجمال لم أره من قبل، الحوائط والنقوش عليها بخط عربي بديع، وأسوار

القصر بالأشجار الطبيعية الخضراء، وحديقته الغناء. إن الدرس الذي ألقاه عليّ مشهد الحمراء كان أبلغ من كل المحاضرات التي يمكن أن تلقى في تصالح الحضارة الإسلامية مع الفنون. إذ كنت أميل منذ طفولتي للرسم والتشكيل، ولكن مع العاطفة الدينية القوية ظلت هناك أحاديث ومرويات تؤرقني وتمسك يدي أحياناً مما أحب، ولكن مشهد قصر الحمراء، مع كتابات للدكتور محمد عمارة[1] أجهزت على كل شك وتردد في الخوض في الفنون من منطلقات إسلامية. لاحقاً زاد اطمئناني بكتابات الحبيب السيد الصادق نفسه في الأمر والتي أكدت عدم وجود أي تعارض بين الإسلام والفنون الجميلة[2].

وأنا أقول، بعض الناس الذين لا يشكل الدين سؤالاً محورياً لديهم بسبب النشأة أو بسبب المعتقد يظنون أن تحرر الشباب رهين بلفظ الخطاب الديني، لأن كل القيود تنبع منه. ويضجرون من المنظرين المستنيرين الذي يجهدون لدك القيود المستندة إلى الدين في مجالات السياسة والاجتماع والثقافة باعتبار هذا جهداً لا داعي له. أخطأوا ألف مرة. ما من شيء يعدل رضا المولى بالنسبة للمؤمن، وهو مستعد لترك كل ملذاته في هذه الزائلة لقاء نعيم الخلود، وأنت لن تستطيع إقناعه بالاستناد لأسس وضعية مغايرة لما يراه عقيدته ومقتضياتها. والحقيقة الأبلغ هي أن معظم الناس في مجتمعاتنا هم من هذا النوع. والطريق إلى استنارة مجتمعاتنا إذن ليست العلمانية، ولكن الخطاب المستنير من داخل الدين.

الشاهد، وقبل أن نلاقي الوالد الحبيب في المغرب كان الولدان الأكبر سناً (عبد الرحمن وصديق) قد أُرسلا لمعسكرات الأنصار في ليبيا ولم تكن قد صفيت كلها بعد برغم المصالحة الوطنية فقد حدثت عرقلة لعملية إعادتهم من جانب القيادة الليبية كما لم توف الحكومة السودانية بمستحقات العودة كما تابعنا.

في المعسكر نظّم لهما برنامج قاس من ناحية التعليم الديني والتربية البدنية، فلقنا

(١) مثلا كتابه الإسلام ومشكلات العصر، وقد ناقش فيه قضايا كثيرة حيوية للشباب المسلم منها مسألة القومية العربية، والفنون الجميلة. ثم كتاب (الإسلام والفنون الجميلة) الذي تطرق لقضيتي التصوير والسماع.

(٢) مثلا في كتابه: رؤى في العروبة والديمقراطية والإسلام، ١٩٩٩م، أو نحو ثورة ثقافية، ٢٠٠٦م

نظام العبادات كما اختطه الإمام المهدي، وحينما قابلانا في المغرب حرصا على بث كل ما تعلماه. فكان الانضباط في الصلاة على نهج الإمام المهدي مسألة أساسية، وكان يصحبنا حينها العم الطيب حسن ملازم الإمام الصديق، والذي كان وليّ أمرنا في غيبة الوالد وطيلة فترة طفولتنا. وكانت تعاليم عمي الطيب رحمه الله صارمة جداً، فأية حركة أو انثناءة في الصلاة ممنوعة. كما كان عمي الطيب راوية في شعر المسادير وقد أخذ عبد الرحمن عنه حفظه ولاحقا آخاه بشرى في ذلك.

وأذكر أن تلك الدروس العبادية المكثفة ارتقت بثقافتنا الإسلامية بدرجة بعيدة، ففي السنة المدرسية التالية كنت في أولى عام (بالمدسة الوسطى) وجاءت مدرستنا وسألت إن كانت واحدة منا يمكنها أن تؤدي الصلاة فتبرعت لذلك، وعبّرت عن دهشتها لأن بعضا مما تلوته أو فعلته لم نكن قد درسناه بعد، فقالت لي من علّمك هذا؟ ثم أنها ومنذ يومها (نشّنت) عليّ لاستدرج في تنظيم الأخوان المسلمين الذي كانت منتظمة فيه، ولكن هيهات!

المهم أن السيد الصادق وجه بسفرنا إلى المغرب متفرقين، وله حاجة كتلك التي كانت في نفس يعقوب حينما أمر أبناءه أن يدخلوا من أبواب متفرقة، وأوصى أم سلمة وهي أكبرنا بأن تكون مسئولة من ماليتنا، وألا تسرف، وقد كان يوماً أبيض يوم أوصاها تلك الوصية! فاعتقدت أن عليها أن تصرف كل شيْ بمقدار حتى البرتقال توزعه علينا واحدة لكل منا في يده ويدها! فكنت تراها تحضر كيس البرتقال وتدخل رأسها بكل حرص لتخرج تلك الجوهرة وتسلمها لصاحبها أو صاحبتها في يدها ثم تدخله من جديد.. وحينما حضر السيد الصادق ضحك كثيراً من ذلك النهج الصارم الذي نفذته علينا أم سلمة، وقال لها قلت لك ألا تسرفي ولكن ليس إلى هذا الحد! فذقنا بعد حضوره انفراجاً كبيراً! ذقنا التفاح والعنب، وكانت التحلية قبلها تقتصر على البرتقالة المذكورة خوفاً من الإسراف!

ولكن التعرف كان رهيباً علينا. فاللقاءات السابقة كانت عابرة وفي حضور أمهاتنا، وهذه هي المرة الأولى التي يلتقينا فيها رأساً برأس. وأذكر أنني جرؤت مرة على الجلوس بقربه وأنا أتهيب من ذلك القرب، فوضع يده على ظهري، وكدت أقطع أنفاسي، وصرت مصبّرة في مكاني وتحوّلت ظهراً موضوعة فوقه كف والدي الحبيب!

وحينما رفع يده عن ظهري ظل هذا الشعور باقياً، وظلت رائحة كفه الزكية معلقة في الملابس التي حاولت الاحتفاظ بها قدر الإمكان بدون غسل، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه! ورويداً صرنا نتوخى الجلوس بقربه طمعاً في لمسة كفه على ظهورنا وأكتافنا، وأحياناً كان يبادر بالتقرب فيصطاد المبتعدين بالعصا يجذبهم برفق من أعناقهم، وكان الواحد والواحدة يتمنى أن يكون صيداً لتلك الأيدي الحبيبة.

هذه الدهشة والاستغراب انطفأ رويداً ليحل محله استلطاف مشوب بحذر، وأحيانا رفض كما ذكرت في المقدمة، من أن يتعدى هذا الأب الغائب حدوده ويحاول أن يفرض علينا رؤاه وما أكثرها.

المعادلة العادية تقول إن طاعة الأبناء للوالدين مشروطة كما في الآية بأنهما (رباني صغيرا) فإن انتفى الشرط تنتفي الطاعة، هكذا كان يقول عقلي الصغير في تمرداته الكثيرة!

ولكن كانت التوجيهات التي يصدرها في خطاباته لنا وهو بعيد لا تتعدى المحافظة على الصلاة وعلى الرياضة البدنية (فالعقل السليم في الجسم السليم)، واستذكار الدروس وذلك أمر معروف أنه من الواجبات. وبعد اللقيا كانت التوجيهات محدودة ومقدرة من قبلنا. مثلا، وجهنا بأن نتناوب أولاد وبنات على نظافة الغرف التي كنا نسكنها، وتنظيف الحمام. وأن يقوم كل منا بغسل ملابسه الخاصة وكيها. فكانت الرحلة عبارة عن كشافة. وبالطبع لم يتح لنا قبلها أن نغسل ملابسنا ونكويها كواجب، ولا تنظيف البيت. ولم أطق الكي بينما أجدت الغسل وكان موقف صديق أخي عكسياً فصرت أغسل ملابسي وملابسه، ويقوم هو بالكي لي وله في معادلة كسبية للطرفين. ولذلك فإننا حينما عشنا الواجبات المنزلية لم نمارسها باعتبارها أمراً خاصاً بالنساء، إذ كان أخوانا عبد الرحمن وصديق يشاركانا تلك الأعمال، والحقيقة لم نشعر يوماً بهذه النمطية في تقسيم الأدوار. وكان عبد الرحمن أخي يقول إن الطريقة التي يعاملنا بها الوالد سوف تجعلنا نصطدم بالواقع في المجتمع لاحقاً لأننا لن نجد أبداً ما تعودناه من احترام كإناث يوازي ما يجده أخواننا الذكور.. ومع الزمن اتضح بالفعل أن ذلك الفردوس كان كالعالم الافتراضي.

المرة التالية للقاء المنظم كانت في أوربا، في المملكة المتحدة، حيث كنا مضطرين

للذهاب هناك للالتقاء بأمينا الحبيبتين رحمة وسارا رحمهما الله في الإجازات، وفي إحداها، وأظن ذلك كان عام ١٩٨٢م أو نحوه، نظّم لنا الوالد برنامج حصص لحلقات دراسية: الأولى عن السيرة النبوية والثانية حول سيرته الذاتية، وكانت الحلقات تجري بحضورنا كلنا وأمّيْنا معنا: حفية وسارا.

أما الحلقات حول السيرة النبوية فكانت مصورة بكاميرا فيديو جلبت لذلك الغرض، وكتب لنا أبياتاً من همزية الإمام البوصيري، صاحب البردة، وعلّم لنا مواضع الطلوع والنزول في الإنشاد، فكنا في بداية كل حلقة ننشد تلك الأبيات حسبما لقننا اللحن، والأبيات المختارة هي:

صلّ يا رب ثم سلم على من ... هو للخلق رحمة وشفاء

لعلا الرسل عن علاك انثناء ... وأولي العزم يوم شأوك جاءوا

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء

سر إيجاد عالم الذر أنت

مضمرٌ بين الكاف والنون كنت

منذ قالوا بلى إلى أن ولدت

لم تزل في ضمائر الكون تختار لك الأمهات والآباء

وكان ينشد لنا من الشعر العربي على صيغتين: الصيغة المعروفة للإنشاد، وصيغة قال إنها كانت خاصة بالشيخ الطيب السراج، كانت فيها فتوة وحماسة، ولا زال إنشاده لقصيدة المتنبي (كفى بك داء) يطوف بذاكرتي، وكنت أراه رائعاً، ولكنه لا يتشجّع للإنشاد ظاناً بصوته الظنون، وهو نفس الموقف الذي يتخذه من خط يده. فهو ينفر من كتابته ويعتقد أن خط يده ليس متناسقاً! وكثيرون يرون خطه عسيراً على القراءة، وأذكر منهم الحبيب محمد عبد الرحمن حسين وكان يعمل في مكتبه أيام الديمقراطية الثالثة، فكان خط السيد الصادق بالنسبة إليه كالألغاز، وكان يستعين بي في فك طلاسمه! بينما برأيي هو من أفضل الخطوط التي رأيتها في حياتي ليس من رشاقة الحروف وتنسيقها، ولكن وضوحها واتساقها مع بعضها، وبراحها وما تنبيك به عن كاتبها وجلاء خطوه،

وقد قيل إن بعض الخبراء يقرأون دواخل الناس من خطهم. وإني قد أتوهم فيما خطت يدي ويصعب عليّ قراءته ولكني لا أتوهم أبدا في كتابة السيد الصادق، من جلاء حروفها وسهولة قراءتها سواء كان ذلك بالعربية أم بالإنجليزية. ولكني اتخذت هذا الرأي بعد أن كبرت وتعرّفت على خطه عن قرب، ولا أخفي إننا كنا نضحك كثيراً على أمي رحمة رحمها الله في صغرنا لأنها كانت تقول إن خطه جميل، وإنه مثل خط الإمام المهدي عليه السلام، ويغيظها عبد الرحمن وصديق بقولهم عكس ذلك يغالطونها كل مرة، وما كانت أمي رحمة رحمها الله تحتمل في بكرها المحبوب كلمة واحدة سالبة، وتعتبر ذلك قلة أدب!

في الحلقات الخاصة بسيرته الذاتية حدثنا الوالد عن طفولته وتأثير من حوله وعلاقته بهم وعن زواجه والفترة القصيرة التي تقلد فيها الحكم، ورؤاه وأفكاره، وحرص في كل يوم والآخر على أن يعيد علينا ما قاله الإمام المهدي حول (أبناء المراتب) محذراً إيانا من الركون لاسمنا، فحفظنا في تلك الأيام شعراً من أمثال:

ليس الفتى من يقول كان أبي ولكن الفتى من يقول ها أنذا!

ومن الأحاديث التي كان يركّز عليها: اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم! كان يخاف جداً أن ننشأ كأولاد وبنات الذوات، وكانت النتيجة برأيي أن الخشونة غلبت بجرعة زائدة! فالأولاد كانوا لا يجتمعون إلا ويحولون المكان إلى حلبة مصارعة، وقد يدفع الأثاث الثمن!

فبسبب الحث على الاخشوشان جرى التدبير لعبد الرحمن أخي ليدرس المدرسة الثانوية بخور طقت، فتم نقله من مدرسته الخرطومية إلى تلك المدرسة الإقليمية بحثاً عن الخشونة وربما للتعرف على بقاع السودان، كان ذلك إبان موسم الهجرة إلى الخرطوم أي كانت هجرته عكسية. فبسبب انهيار الخدمات التعليمية في الأقاليم كان كل من يملك وسيلة للمجيء للخرطوم يحضر للحصول على نتيجة أفضل في الشهادة السودانية.

وقد حذت طاهرة حذوه بعدها بسنوات، ففي سنتها الثالثة الثانوية وكان ذلك إبان الديمقراطية الثالثة، ذهبت للدراسة في مدرسة سنجة الثانوية.. وهي أمور لم نشهدها لا في أسرتنا الكبيرة ولا في معارفنا.. كانت بعض (محن) بيت الصادق! طاهرة حينما ذهبت

لسنجة اتضح لها مدى التدهور المريع في مستوى التعليم فقفلت راجعة، وسددنا الفرقة، صديق وأنا، تقسمناها في المواد العلمية والتي تحتاج شرحاً وألحقناها بالركب لتمتحن!

وفي لقاءاتنا تلك، كان الوالد السيد الصادق يخصص أوقاتاً لتنظيم مسابقات رياضية، فكان الأولاد خاصة عبد الرحمن وصديق هم الأسبق في الجري وكان يتسابق معهما، كان أداء عبد الرحمن الأفضل في المسافات الطويلة وأداء صديق الأفضل في المسافات القصيرة بسبب الأزمة التي تقطع أنفاسه. وكان أيضا يُجري سباقاً بيننا نحن الأبطأ ربما باستثناء طاهرة التي كانت سريعة في عدوها، وكان هذا مجالاً خارج اختصاصي حيث أكون من المتأخرات.. وقد كان يوماً مشهوداً حينما سبق بشرى، أصغرنا وكان عمره ربما ثلاث أو أربع سنوات، أمي حفية فصار مجال تندر كبير! وأظن أمي سارا رحمها الله قد نأت بنفسها عن تلك المنافسات إدراكاً أن ذلك (شعراً ما عندها ليه رقبة)، بينما كانت أمي حفية ولا زالت بحمد الله تحب المشاركة في التمارين البدنية ولها أداء مميز بالنسبة لبنات جيلها.

كما كان الوالد الحبيب يلعب معنا تنس الطاولة (بينج بونج) وفي هذا كنت الأفضل أداء في المجموعة بسبب لعبي إياه بمدرسة الشاطئ المتوسطة، وكنت ممن يشارك في منافسات البطولة، لكن الوالد الحبيب كان الأبرع والأصعب أن يُغلب.

ومن بين هذه الدروس وتلك، فإن أهم درس برأيي يتعلمه الواحد والواحدة حينما يقرّب من السيد الصادق هو أنه لا وقت للدموع! أو بالأصح: أن الوقت ثمين جداً، ويجب أن تستثمر كل ثانية فيه بطريقة ممنهجة كنت فكرت فيها ووازنت واخترت، فلا تدع ثوانيك ودقائقك تذهب سداح مداح! وكذلك أن كل شيء في الحياة ينبغي أن يؤدى بإتقان فلا تترك الأمور تأتي كما اتفق.

هذه هي الذهنية التي نفتقدها بالطبع حتى نخرج من حالة:

إيه الدنيا غير

لمة ناس في خير

أو ساعة حزن

التي صدح بها الراحل المقيم مصطفى سيد أحمد في رائعة صنوه محمد الحسن سالم حميد (عم عبد الرحيم).. لأننا لو تابعنا ذهنية التراخي والتضييع المجتمعي للوقت بتعريف للدنيا محصور في تلك المناشط، فلن نتطور من الحالة التي انتقدها ذلكم الشاعر الأمامي الراحل المقيم إبراهيم العبادي، وهو يعلق على أول رحلة لبشر للقمر قائلاً:

ورجل العلم حلّق في سمانا وطار

وفي تصميمو في المريخ يسوّي مطار

ولسع نحن في العرضة ورقيص الطار!

الشاهد.. لعل موقف السيد الصادق هذا من أثر المهدية وحزمها وصرامتها، وهذه الدروس تعمقت لاحقاً حينما أتيحت لنا الخطوة الأهم في التعارف بالوالد السيد الصادق، ألا وهي أثناء الاعتقال المنزلي في عهد «الإنقاذ» الأول.

في تلك الفترة قربنا منه أكثر، وأخذتنا طريقته الآسرة في التقرب إلينا، فهو خفيف الظل يحب المزاح، ولكنه كذلك يقف إلى جانب ذلك الذي تكثر عليه السهام، وكنت هدفاً مركزاً لسهام عبد الرحمن وصديق الذين كانا يشكلان تحالف الشغب المقدس، كانا يحبان عمل المقالب والإغاظة (المكاواة)، وكنتُ وطاهرة لقماً سائغة لهما ربما لأنه كان يبدو علينا الغيظ أكثر، أما قائمة وجعي فكانت بلا نهاية وعلى رأسها: لثغة في اللسان في حرف الراء، وعجز أساسي في تتبع أكثر من موضوع.. أما صديق وعبد الرحمن فقد عذباني لدرجة لا تطاق. وأذكر في مرة بينما كنا كلنا مجتمعين وكنت أتابع موضوعاً تم فتحه سرحت معه بينما الجماعة ظلوا يلجون المواضيع ويخرجون منها بدوني، انتبهوا لحالتي المعتادة فتحلقا حولي يعذباني بأني (ارعى بغنم إبليس)، ويقولان: كم يعطيك في الشهر نعطيك أكثر منه لتبقي معنا! وبينما صدري يضيق بتلك الاتهامات جاءت النجدة من الوالد محرفاً بيت الشعر المعروف: العبقرية أن تحلق في السماء بغير قصد! فدعوها.. ههنا تركا ذمي، وصارا يتظاهران بالتحليق بغير قصد، ويتطلعان للسقف!

لقد اقتربنا منه في جو من الدروس المبرمجة والمكثفة التي هضمناها بذلك الود

والمحبة واللطف غير المحدود.

والآن، فلنر كيف عمل السيد الصادق على مأسسة وتوسيع أبوته لتشمل آخرين كثيرين، هم الشباب والأطفال في ذلكم الكيان المليوني الذي يعترف بعلاقات الروح أكثر من علاقة الرحم والنسب؟

فالإمام المهدي عليه السلام حينما كتب إليه بعض أهله ممن ارتهنهم جيش بريطانيا الغازي بلبب، وطلبوا مبادلتهم بالأسرى الأوربيين في أم درمان اعتبر أن أولئك الأسرى أعز وأقرب إليه منهم، قال لهم في خطاب بتاريخ ١١ شعبان ١٣٠٢هـ: (هذا وليكن في علمكم أن جوابكم المحرر بتاريخ ١٥ رجب ١٣٠٢ قد وصلني وفهمت جميع ما احتوى عليه من مكر أعداء الله بكم، ورهنكم في القديسين والفرنج والأقباط الذين بطرفنا،...، وقد فعلوا بكم ما هو أقل من جزاكم فإنا قد دعوناكم إلى إجابة دعوتنا مراراً فلم تعملوا بقولنا،..، فحيث أنهم أنابوا إلى الله وخرجوا من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان وصاروا بذلك من أعز أحبابنا وأصحابنا فهم أعز علينا منكم الآن،..؛ وأنهم الآن أقرب إليَّ منكم، ولهم علي الولاية دونكم لو كنتم مؤمنين بي، فضلاً عن عدم تحقق إيمانكم)[1].

كما أنه، أي المهدي، عرّف أسرته بأنها تشمل ذريته وخمسة رجال آخرين هم: خليفة الصديق (أي خليفة المهدي)، وخليفة الفاروق (الخليفة علي ود حلو)، وخليفة الكرار (الخليفة شريف)، وأخويه حامد ومحمد. بعض هؤلاء لا تجمعهم به إلا رابطة الروح التي تحولت إلى قربى أسرية في مفهومه.

ويقول الدكتور روبرت كريمر في بحثه لنيل الدكتوراة بعنوان (أم درمان: مدينة مقدسة على النيل) إن القرابة في عرف الأنصار في المهدية «روحية» بتعبيرهم، لدرجة اختلطت على مخالطيهم، لذلك فإن الكثير من الأمراء الذين ذكرهم نعوم شقير وسلاطين مثلا على أنهم أقرباء لخليفة المهدي ويتحدث عنهم أبناؤه أو أحفاده على أنهم «من العائلة» لم يكونوا ينتمون له بالدم ولا بالنسب. وذكر أنه في جواب من خليفة

(١) انظر/ي محمد إبراهيم أبو سليم، الآثار الكاملة للإمام المهدي، وعبد المحمود أبو شامة، من أبا إلى تسلهاي

المهدي الى أحد الأنصار كان قد خطب ابنة الأمير النور عنقرة (من الدناقلة) يشترط الخليفة منه أن يثبت كفاءته واستحقاقه لها فذاك الأمير قريبه! والأعمق دلالة هو أن البعض نصح المتقدم أن يوسط الزاكي طمل.[1]

نعم العلاقات هنا روحية، وقربى الروح قوية الأواصر ولا تفلها الأعاصير. فكيف سعى الحبيب السيد الصادق لجعل الدماء تسري في أواصر الكيان الذي استهدفه الطاغية وحاول دكه وتفكيكه؟

تكوين هيئة شئون الأنصار

ارتبط قيام كيان الأنصار بالدعوة المهدية وثورتها ثم دولتها في السودان في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، حيث سمى الإمام أتباعه بأنصار الله مصداقاً للآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾[2]، وصار أتباعها داخل السودان وخارجه، في نيجريا والكمرون والسنغال وتشاد وغيرها، يسمون بالأنصار.

لم يجر إحصاء دقيق للأنصار بعد، ففي نيجريا يظن المهندس فاروق أبو بكر سعيد حياتو حفيد الشيخ حيدة الدين الذي آمن بالإمام المهدي ونصبه أميراً على خلافة سكوتو أن الأنصار هم أكبر التنظيمات الدينية في نيجريا، ويقول إن التجانية هم الأظهر ولكن ذلك لتنظيمهم وتمويلهم وربطهم بقيادتهم ويعتقد (فاروقو) أن الأنصار لفقرهم وتفشي الأمية بينهم وعيشهم المشتت في قراهم، وبعدهم عن تنظيم مركزي وقيادة موجهة فإن صوتهم منخفض وهم بالتالي قليلو الأثر.

أما في السودان فإن الأنصار أفضل حالاً كونهم دائماً لهم قيادة مرموقة، ولكن لديهم ذات المشاكل من وجودهم في أحزمة الفقر والأمية. ولكنهم دائما يقدرون أعدادهم تقديرات كبيرة تدل عليها تجمعاتهم الجماهيرية. ولا يمكن الاستشهاد بصناديق الاقتراع في الانتخابات الحرة لأن كثير من المصوتين لحزب الأمة ليسوا أنصاراً، كذلك كثير من الأنصار لا يصوتون بسبب مشاكل الترحيل وعدم الوعي وغيرها.

---

(١) Kramer, Robert A Holly City on the Nile: Omdurman 1885- 1898 PHD Thesis 1991

(٢) سورة الصف الآية رقم (١٤)

أقام الإمام عبد الرحمن للأنصار تنظيماً محكماً يقوم على الوكلاء (وهم يمثلون قبائلهم ومناطقهم)، والمناديب (وهم يبعثون لقبائلهم ومناطقهم دورياً)، وشيوخ الأنصار (وهم يمثلون أحياء العاصمة المثلثة)، وشباب الأنصار (وهو تنظيم للشباب حاول تكوينه الإمام في ١٩٤٢ ولكن السلطات أمرت بحله في عام ١٩٥٠م، ثم سمح بتكوينه من جديد في ١٩٥٢م)، وهيئة الملازمية (وهي تنظيم يجمع الأشخاص المحيطين بالإمام مباشرة يساعدونه في أنشطته المختلفة). وكان عمل الأنصار ذلك يتبع للإمام شخصياً، ويخضع لمكتبه الخاص إذ يشرف عليه قسم منه يسمى مكتب شئون الأنصار.

لقد جعل الإمام عبد الرحمن كيان الأنصار التكوين الشعبي السوداني الأول، يظهر ذلك في مقدرته المتفوقة على حشد جماهيره في المناسبات والأعياد المختلفة. وهي خاصية احتفظ بها الكيان رغم أن الأنظمة الديكتاتورية المتعاقبة على السودان بذلت كل ما تستطيع من وسائل وإمكانات لتقويض كيان الأنصار، بلا جدوى.

لقد اتخذ الإمام عبد الرحمن موقفاً واضحاً ضد أسلوب الثورة المسلحة، ونأى بالكيان منه تماماً شارحاً مفهوماً للجهاد في الإسلام أوسع من الجهاد القتالي وحسب، هذا مع الاحتفاظ بالروح الفدائية، وبدرجة عالية من التدريب البدني والانضباط. كما أنه في التعامل مع الآخر الملي والوطني نقل الكيان نقلة نوعية من موقف العداء والمواجهة إلى التسامح والتعايش، هذا بدون التخلي عن العقيدة المهدية قيد أنملة.

لقد كانت اجتهادات الإمام في أقلمة المهدية لزمانه ونقل كيان ثائر مقاتل رافض للآخر، إلى وضع الجهاد المدني والتعايش مع الآخرين بدون فقدان الحماسة، ولا التشويش على نقاء العقيدة أو المساس بالعبادات، كلها انجازات ضخمة.

واستمر عمل الأنصار في عهدي الإمام الصديق والإمام الهادي عليهم رضوان الله يتبع مكتب الإمام الخصوصي عبر مكتب شئون الأنصار.

وبعد قيام نظام مايو واستشهاد الإمام الذي لم يثبت رسمياً إلا في العهد الديمقراطي اللاحق، حل النظام المايوي جميع أجهزة الأنصار واحتل دورهم ومساجدهم واعتقل عدداً كبيراً من قياداتهم ومن المناديب ووكلاء الإمام.

ولما خرج السيد الصادق من المعتقل أول مرة في مايو ١٩٧٣ وجد كل مؤسسات الأنصار ومساجدهم تحت احتلال السلطات الحكومية، وأن كثيراً من الأنصار استفزوا وهاجروا شرقاً في ذات الدرب الذي سار فيه الإمام كما روينا تفصيلاً. وخرج هو نفسه في أواخر أبريل ١٩٧٤م، وقاد بهم الانتفاضة المسلحة التي هزت النظام ولم تفلح.

وفي تلك الأثناء كان مهتماً بما جرى للأنصار، وكيفية تدارك ما حلّ بهم، وقد وجدت بين أوراقه ورقة تتحدث عن التخطيط للإحياء الأنصاري برغم النكبة والذي تقوده خمس لجان: لجنة الوكلاء، لجنة التبصرة، اللجنة الاقتصادية، اللجنة المالية، واللجنة الاجتماعية. وسوف نورد هنا جانباً منها للأهمية:

(عهد أنصار الله هو اتفاق القول واتحاد الكلمة انتصاراً لعقيدتهم وهي بعث الإسلام وإحياء ما اندرس من الكتاب والسنة، مبرأين من تفرقة المذاهب والطرق، مدعمين بالاجتهاد والتجديد لمراعاة ظروف الزمان، مصحوبين بإرشادات قيادة مؤهلة مطاعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وصاحب البيعة في دعوة الأنصار في الأصل هو الإمام المهدي عليه السلام ثم انتقلت إلى خليفته خليفة الصديق عبد الله بن محمد، ثم تعرضت (الدعوة) للمحنة الأولى على يد الغزو الأجنبي، ثم تجددت البيعة بعد زوال الدولة على يد الإمام عبد الرحمن الصادق، وانتقلت بعده إلى خليفته الإمام الصديق، ثم إلى الإمام الهادي الذي ظل حاملاً الراية حتى هاجر في مارس ١٩٧٠ م وهو اليوم غائب، وفي غيبته يمارس مهامه نائبه الذي اختاره وأعلنه في خطابه بتاريخ ٨ مايو ١٩٦٩ م.

ونحن الأنصار لا ننكر احتمال وفاة الإمام الهادي فإنك ميت وإنهم ميتون، ولكننا لا نعتمدها بالظن وروايات الخصوم، بل لا نقرها إلا بعد أن نشيّع ونصلي ونواري.

ونحن إذ ننتظر جلاء الحقيقة في أمره سندل عليه حيث وجد حياً أو في الآخرة، وسنحمل الراية التي حملها موحدين متماسكين، فإن عاد وجدنا كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وإن انتقل وثبت لنا ذلك يقيناً فنحزم أمرنا ونختار من يحمل الراية في كرسي الإمام المهدي عليه السلام، ويجدد بيعته والله ولي التوفيق.

وسوف يقوم فينا النظام الآتي:

١ - كل وكيل عينه الأئمة: عبد الرحمن، الصديق، الهادي، يستمر وكيلاً في مكانه. وكل إمام جامع عينوه سوف يستمر إماماً في مكانه.

٢ - ولما كانت تنظيمات الشيوخ والشباب الجماعية محظورة الآن تقوم تنظيمات سرية لشيوخ وشباب الأنصار تتيح للأنصار مجالات اللقاءات السرية لتلقي الإرشادات الدينية، ولعمارة المساجد، ولإحياء شعائر الدين، والتعاون على تحقيق مصالح الأنصار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣- إن كيان الأنصار اليوم في حاجة لبناء روحي، وتوعية بالتراث، وإزالة آثار البطش والعدوان، ولذلك وجب الانصراف لتحقيق هذه الأهداف، وقد اختارت القيادة لجاناً تمثل قبائل الأنصار وأجيالهم وكافة أصنافهم لتعمل هذه اللجان جماعياً، وتعاون القيادة في تحمل المسئولية في ظروف المحنة الثانية التي وقعت علينا بعد كرري والتي حلت بنا في مارس ١٩٧٠ م.

٤- ونحن الأنصار نعمل بكل ما عرف عنا من إخلاص وتضحية لمساعدة القيادة وأعوانها على اجتياز ظروف المحنة الحالية، صامدين صابرين رافضين لكل أباطيل مايو، موحدين صفوفنا، مكثفين جمعنا في كل المناسبات الدينية كالصلوات وحلقات الراتب والاجتماعية كالمآتم، وذكريات بدر وأبا[1]، و٢٧ رجب[2]، والأعياد، والمولد وغيرها من المناسبات.

٥- أما دورنا الوطني في إنقاذ البلاد وعلاقاتنا بالمنظمات الدينية الأخرى فتحدده القيادة على ضوء مبادئ الأنصار المعروفة، وتراثهم الموروث، ومقتضيات الزمان الحاضر، ومصالح الجماعة ويعاون القيادة اللجان الآتي بيانها، ونحن نعاهد الله والالتزام بهذه الأسس ومعاونة اللجان المذكورة.)

وتمضي الورقة مفصلة اللجان الخمس ومهامها. فلجنة الوكلاء عليها تسجيل

(١) يحتفل الأنصار سنوياً في ١٧ رمضان بذكرى واقعة بدر في صدر الإسلام وأبا الأولى في صدر المهدية.

(٢) يحتفل الأنصار سنوياً في ٢٧ رجب بعدد من المناسبات هي: الإسراء والمعراج، ومولد المهدي، وعيد الأسرة بعقد القران الجماعي، وصار الاحتفال يسمى بـ«الرجبية».

الوكلاء الذين عينهم الأئمة واختيار وكلاء حيث لا يوجد ليعمل الوكيل على إزالة الخلافات بين الأنصار ويوصل إرشادات القيادة لهم ويحث على أداء الشعائر وصلاة الجماعة، ويشرف على الزكوات وصرفها على مستحقيها، ويدون الوارد والصادر بدقة وأمانة (حتى تراجع أعماله عندما يفتح مكتب مركزي للزكوات).

وتتولى لجنة الوكلاء أمر منزلة لضيافة الأنصار الذين يفدوا العاصمة، وتجمع التبرعات لبناء مساجد الأنصار.

أما لجنة التبصرة فتسجل أئمة المساجد من الأنصار، وتشرف على تأليف كتيبات تتناول عقائد الأنصار والعبادات والتاريخ وخطب الجمعة وتبحث كل وجوه الإرشاد والتوعية، وتشرف على توزيع تلك المؤلفات بالقيمة أو مجاناً، وتتخذ مجموعة من أبناء الأنصار المتعلمين ليكونوا مناديب إرشاد لأهلهم، وتصدر نشرة إرشادية دورية.

أما اللجنة الاقتصادية فعليها معرفة أحوال الأنصار الذين يعانون من سوء الأحوال في بعض المناطق كالجزيرة أبا، أو الرحل، أو مناطق الزراعة الآلية أو النازحين أو في مناطق السافانا أو في الهجرة بالخارج أو حول الأسواق والبنادر الكبيرة، ودراسة كيفية مساعدتهم.

واللجنة المالية تجمع تبرعات من الأنصار لتنفيذ عمل اللجان وتتولى القيادة تدبير الناقص. واللجنة الاجتماعية تشرف على الاحتفالات الاجتماعية والدينية وتوحيد طابعها في الأقاليم وتطبع وتبيع ما يقال في المناسبات الاجتماعية.

هذه الورقة كتبت أثناء المواجهة القصوى مع النظام، وكان النظام في ذلك الوقت قد قام بمجهودات ضخمة لتفتيت الأنصار ما أسماه (استئناس الأنصار)، هذا البرنامج عاد فيه بخفي حنين ولم يدرك منه شيئاً[1].

وقد لاقى الأنصار نكبة ثالثة بعد فشل الانتفاضة المسلحة في ٢ يوليو ١٩٧٦م، ففي تلك الانتفاضة خسر الكيان مئات، جزء كبير منهم من حفظة القرآن والراتب، كما بلغ التضييق عليهم مبالغ عظيمة.

(١) حديث الحبيب الإمام في برنامج شاهد على العصر، الحلقة الحادية عشرة

وحينما عاد السيد الصادق المهدي بعد المصالحة الوطنية، كان من بنود المصالحة رفع يد الحكومة من مؤسسات الأنصار ومنحهم حرية العمل الديني والاجتماعي والاقتصادي. وكانت تلك أول مرة يتاح فيها، منذ قيام حكم مايو، للأنصار بعض الحرية في تنظيم صفوفهم واستئناف عملهم الديني والدعوي، ولكن ذلك لم يدم طويلاً.

رأى الصادق بعد التشاور الواسع ألا يقوم تنظيم الأنصار على ما كان عليه في الماضي بإشراف مكتب خصوصي. بل أن ما يناسب الظروف الجديدة هو أن يقوم تنظيم الأنصار على أساس هيئة ذات شخصية اعتبارية تسمى هيئة شئون الأنصار.

نص دليل تلك الهيئة التأسيسي على الآتي: وتعين هيئة شئون الأنصار الإمام (أو نائبه) في تصريف مسئولياته بمفهوم يحقق قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [1].

الدليل التأسيسي لهيئة شئون الأنصار:

صدر الدستور الحاكم لكيان الأنصار على النهج الجديد في عام ١٣٩٩هـ في ١/ ١/ ١٩٧٩م. وأطلق عليه عنوان (الدليل التأسيسي لهيئة شئون الأنصار).

واشتمل ذلك الدليل التأسيسي على منشور (دليل التأسيس) وهو موجه «من المفتقر إلى مولاه الصادق الصديق عبد الرحمن المهدي إلى أحبابه في الله»، وطبع وجعلت له ملاحق خمسة هي:

١) الصلاة: مختصر منشوري العقيدة والمصافاة في صفة الصلاة.

٢) الصيام: منشور الإمام المهدي عليه السلام في الصيام.

٣) الزكاة: منشور الإمام المهدي في أنصبة الزكاة.

٤) منشور الأوجه الشرعية لتصريف الزكاة.

٥) خيارات الراتب.

جاء في مطلع دليل التأسيس التالي:

(اعلموا، أحبابي، أن دعوتنا هذه مسئولية حكم علينا رب البرية أن نقوم بأعبائها

(١) سورة الشورى الآية رقم ٣٨

وواجباتها ونتحمل تكاليفها في النفس والمال والولد إلى أن نلقى الله وهو راضٍ عنا).

وذكر جهاد الإمام المهدي وخليفته من بعده في سبيل الله، والبعث الذي قاده الإمام عبد الرحمن المهدي، وجهاد الإمام الصديق وقيادته للمسيرة لتحقيق الشورى والديمقراطية ثم ذهابه إلى ربه راضياً مرضياً، وحمل الإمام الهادي للراية في مواجهة الإلحاد يوم تسلط في بداية هذا العهد *(فكانت التضحيات التي بذلت عن طيب خاطر والسجون التي تحولت إلى بقاع يذكر فيها اسم الله. وكانت الهجرة إلى المشرق والمغرب. وجعلني واقع الحال مسئولاً عن شئونكم يعاونني رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه طوال السنوات القاسية الماضية، باذلين النفس والنفيس إلى أن تمت المصالحة الوطنية التي أحلت الحوار والحرية محل الاقتتال والقهر، وانفتح باب جديد للسعي لتحقيق وحدة البلاد واستقرارها. وبفتح الباب الجديد انتهت دواعي الهجرة لأن الهجرة مفهوم ديني يصبح واجباً في وجه تسلط إلحاد أو اضطهاد، نسأل الله أن يتقبل جهادنا وشهداءنا منذ أبا الأولى إلى أبا الثانية وما بينهما وما بعدهما، ونسأل الله ونحن في نهاية هذا القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الهجري أن يوفقنا لبناء صفوف أمتنا لتواجه متطلبات مسئولياتها الفكرية والجهادية من أجل مثلها الإسلامية.*

والآن، أحبابي، وبعد هذا العناء الطويل أقيمت تنظيمات الأنصار الدينية والاجتماعيا بعثاً للدعوة وتنشيطاً للهمة في مرضاة الله، وشكلت هيئة شؤون الأنصار لقيادة هذه التنظيمات وفي قمة الهيئة مجلس شورى الأنصار الذي يؤدي، الآن، عمل الهيئة إلى حين اكتمال قيامها. ويقود هذه الهيئة إمام الأنصار أو من يقوم مقامه. وستقوم هي بمعاونة الإمام أو من يقوم مقامه في تصريف مسئولياته بمفهوم يحقق قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1].

ويمضي دليل التأسيسي يشرح أهمية الشورى في الإسلام، ويصف الهيئة بأنها تتبع وسائل سلمية، وتهدف لإحياء الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما، وإحياء تراث المهدية، وأنها ستعنى بشئون الأنصار الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وستستعين بلجان: للدعوة والإرشاد، لشئون الوكلاء، للشئون الاجتماعية، لشئون المرأة

(١) سورة الشورى الآية رقم ٣٨

الأنصارية، لشئون الاتصالات الخارجية مع الهيئات والحركات الإسلامية ومع جماعات الأنصار غير السودانيين في نيجريا والكمرون وغانا وبريطانيا وأمريكا وغيرها.

ويمضي السيد الصادق في الدليل يفصل مهام مكتب شئون الأنصار كحلقة وصل بين القيادة والقاعدة، ومهام الوكيل، وأسس الوكالة، مبقياً على الوكلاء الذين عينهم أئمة الأنصار، ويجعل من مهام الوكيل جمع الزكوات.

ويمضي الدليل مبينا أحكام الزواج والطلاق، وحكم غيبة الزوج، والأحوال المتعلقة بها، وهي تفاصيل كانت مطلوبة يومها لقسم كبير من المهاجرين الذين عادوا بعد غيبة سبع سنوات وما كانوا يتصلون بزوجاتهم وبأهلهم، فوجدوا أحوالاً مختلفة. ويتحدث الدليل عن مختلف التوجيهات في العبادة والتلاوة والصلاة وتعلم القرآن مهتماً بأمر النساء فيها.

ويؤكد: (*ولستم حزباً سياسياً. فأنتم أنصار الله تدعون إلى الله على بصيرة، وتدلون الناس إلى الكتاب والسنة على سكة مهدي الله الذي قال: أنا عبد مأمور بإقامة الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما. واعلموا إنما سماكم الإمام المهدي الأنصار لا أنصاراً لأسرة ولا لشخص وإنما أنصار إلى الله على حد قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾*[1]. *فالأنصارية دعوة من الله لكل الناس أن ينخرطوا في مرضاة الله ويدافعوا عن كلمة الله*).

ثم يقول في النهاية: (*أحبابي: سيكون في قيادتكم مركز رئاسي في أم درمان، وآخر في أبا، ومراكز فرعية في مناطق ثقل الأنصار هي منارات للدعوة والتوجيه والإرشاد وتنظيم شئونكم. وسيكون هنالك مناديب يسعون إليكم، ومناشير تبعث الحياة بينكم، وتجدد شباب دعوتكم، فكونوا على استعداد للعمل والمشاركة والبذل والتضحية في سبيل دعوتكم والله ناصركم. ولن يلتكم أعمالكم، واستعينوا بالصبر والصلاة وصابروا ورابطوا إن ذلك من عزم الأمور*).

بالطبع لم يمكن أن يتطرق الدليل التأسيسي هذا لمسألة الإمامة واختيار الإمام،

(١) سورة الصف الآية رقم (١٤)

فالأنصار كانوا حينها في حالة غيبة الإمام وهجرته والشكوك حول مصيره، وكانوا ينتظرون تحقيقاً حول ما حدث، وقبل ذلك ما كان يمكن فتح ملف الإمامة.

لاحقاً سنرى أن الدليل الأساسي للهيئة نص على أن الهيئة تتكون من مجلس حل وعقد يضع السياسات والتشريعات وينتخب الإمام، وله أن يعزله، ومجلس شورى، ومؤتمر عام مكون من أربعة آلاف عضو منتخب من تكوينات الأنصار القاعدية في المديريات والمحليات المختلفة.

وفي هذه الفترة أصدر السيد الصادق منشوري (العقيدة) التي تبين عقيدة الأنصار وأسسها الصحيحة. و(العادات) الذي يدعو لنبذ العادات الضارة مثل المباهاة في الزواج ومثل ختان البنات.

وكان السيد الصادق يلقي أحياناً محاضرات بعد صلاة المغرب في مساجد الأنصار وأهمها المسجد ببيت المهدي، ومسجد الهجرة بودنوباوي.

كما قدم بعض الخطب في منبر الجمعة وطبعت بعض تلك الخطب ووزعت وهي تخاطب قضايا العقيدة والتجديد الديني والبعث الإسلامي وقضايا فقهية مختلفة.

كما أنه في العهد الجديد تم تنظيم دورات تأهيلية للكادر الطلابي والشبابي، وقد كانت التنظيمات الطالبية في الجامعات والمدارس الثانوية، ولا زالت، تتخذ اسم (تنظيم الطلاب الأنصار حزب الأمة). وهذا ما سوف نتطرق له لاحقاً، ونرى كيف قام النظام بالتغول من جديد على حرية الأنصار ووقف أو عرقلة أعمالهم.

الوساطة بشأن الرهائن الأمريكيين ١٩٨٠م

ضمن نشاط السيد الصادق في ذلك الوقت برز دوره في مسألة الرهائن الأمريكيين لدى إيران، والذين شكلوا أزمة دبلوماسية حدثت بين إيران وأمريكا، فقد اقتحمت مجموعة من الطلاب الإسلاميين في إيران السفارة الأمريكية في طهران دعماً للثورة الإيرانية، واحتجزوا ٥٢ مواطناً أمريكياً في ٤ نوفمبر ١٩٧٩.

وفي أواخر عام ١٩٧٩م زار السيد الصادق المكسيك، وكان متجهاً منها إلى طهران، وهناك قابل صديقاً له مسئولاً باليونسكو طلب منه التدخل في الأمر، هو السيد محمد

مختار أمبو. فوافق على أن يتولى أمبو الاتصال بالإدارة الأمريكية والجهات الدولية ويقوم هو بالاتصال بالقيادة الإيرانية، وبعدها عاد للندن ثم لطهران حيث بقي فيها في الفترة ما بين ١٧-٢٦ ديسمبر ١٩٧٩م، والتقى في واشنطن في يومي ٣ و٤ يناير ١٩٨٠م وفداً من الخارجية الأمريكية.

الاطلاع على محضر الاجتماعين والمداولات بشأن القضية أدناه يظهر مجهودات السيد الصادق وقراءته الصحيحة للأحداث في إيران، وانطلاقه من نصرة التجربة بالنصح المخلص، حيث أكد للوفد الأمريكي أنه أصلاً كان يعمل على زيارة إيران قبل أزمة الرهائن ليبحث معهم عدداً من القضايا، ثم تحدث عن مطالب إيران العادلة، وأن فك الرهائن ممكن بموجب مشروع اتفاق يشمل الاستجابة لهذه المطالب العادلة، مؤكداً أنه وجدا استجابة واسعة للآراء التي أدلى بها بين المسؤولين الإيرانيين، وأن الإمام الخميني لأول مرة يقول إن الاقتراح يستحق الدراسة، وحينما سأله الوفد عن كيفية تصرفهم عملياً إذا أرادوا بحث حل عادل، أشار لهم بأن يقوم بذلك طرف ثالث وسيط، وأن يكون الوسيط إما جهة عربية مثل سوريا والجزائر وفتح، أو جهة إسلامية تشمل باكستان ونيجريا، أو جهة من العالم الثالث تنتصر للشعوب المستضعفة.

ويذكر لنا التاريخ أن أمريكا بعد هذه المداولات وما أبداه بعض مسئوليها من اقتناع بعدم جدوى الحل العسكري قد عملت بالفعل على تجريب الحل السلمي، ولكن التعنت الإيراني حال دون الوصول لحل حينها. ثم حاولت أمريكا محاولة عسكرية فاشلة في 24 أبريل ١٩٨٠م، مما أدى لتدمير طائرتين أمريكيتين ومقتل ثمانية جنود أمريكيين وإيراني مدني واحد.

بعد ذلك اتجهت للحل الدبلوماسي، وجرّبت أول الخطوط التي اقترحها الإمام أعلاه (جهة عربية مثل سوريا والجزائر وفتح) حيث تم حل قضية الرهائن بعد إبرام اتفاق الجزائر في ١٩ يناير ١٩٨١م والذي بموجبه أفرجت أمريكا عن أموال إيران المجمدة مقابل إفراج إيران عن الرهائن، على أن يقدم كل صاحب ظلامة من البلدين ظلامته أمام منابر العدالة الدولية. ولكن الحل الذي تم التوصل إليه كان بصيغة أدنى مما كان يمكن التوصل إليه من شروط لصالح إيران بحسب التفاوض الذي قاده السيد الصادق حينها والذي وجد تجاوباً من الجانب الأمريكي عندئذٍ، لقد أكد أنه سعى

بجدية لحل الأزمة لئلا يؤخذ على بلد مسلم أنه يأسر مستأمنيه، وكذلك لأن (في حل الأزمة ما يحسن فرص انتخاب الرئيس كارتر أمام منافسه السيد رونالد ريجان وتقديرنا أن انتخاب كارتر أفضل للعالم الثالث. واقترحنا حلاً عادلاً ومناسباً، ولكن للأسف لم نجد تجاوباً من القيادة الإيرانية. ثم حلت الأزمة بشروط أقل كثيراً في حق إيران من الأسس التي اقترحناها.[1])

وقد دوّن السيد الصادق تفاصيل تدخله في المسألة كالتالي[2]:

(لدى زيارتي للمكسيك، تحدث معي الصديق أحمد مختار أمبو مدير اليونسكو حول إمكانية بحثي موضوع الرهائن الأمريكيين عندما أذهب لطهران، فقلت إن لي رأياً في الموضوع ولن أتدخل إلا إذا قبل الطرفان حلاً عادلاً لا يقف عند حد الشكليات القانونية. قال إنه على اتصال بالحكومة الأمريكية وهو أيضاً حريص على حل عادل، فاتفقنا أن اتحدث أنا مع القيادة الإيرانية ويتولى هو الاتصال بالحكومة الأمريكية وبالجهات الدولية. وقبل مغادرتي المكسيك قال لي: إن الحكومة الأمريكية تدعوني للمرور بواشنطن للاستماع لآرائي حول الموضوع فاعتذرت عن تلبية الدعوة على أن يكون هو صاحب الاتصال المباشر بالأمريكيين. ثم عدت للندن ومنها لطهران حيث بقيت في طهران ما بين ١٧-٢٦ ديسمبر ١٩٧٩م ثم عدت للندن وهناك اتصل بي الأخ أمبو مرة أخرى وقال إن السيد سيروس فانس Cyrus Vance يدعوني للاستماع لآرائي وفي ظل ما حدث في أفغانستان رأيت تلبية هذه الدعوة، فقابلته في يومي ٣ و٤ يناير في واشنطن وحضر المقابلة من الجانب الأمريكي الآتية أسماؤهم:

١. سيروس فانس Cyrus Vance وزير الخارجية.

٢. دافيد نيوسون David Newsom الوكيل الدائم للشئون السياسية.

٣. بل ماينس Bill Maynes مساعد الوزير لشون الأمم المتحدة.

٤. هاك ساندرز Harold Saunders مساعد الوزير لشئون الشرق الأدنى.

---

(١) الصادق المهدي الديمقراطية في السودان عائدة وراجحة.

(٢) التفاصيل مدونة في مذكرة الخطوط الجوية البريطانية بتاريخ ٦/ ١/ ١٩٨٠م، ويبدو أنه دونها أثناء رحلة طيران.

الاجتماع الأول في ١٩٨٠/١/٣م

بعد المجاملات والترحيب قال السيد فانس هنالك أزمة نواجهها وعلمنا أن لك آراء حول حل عادل لها ونريد أن نسمع ما ترى وتقترح.

الصادق: أشكركم على هذه الدعوة، وانتهز هذه الفرصة وأذكر أن زيارتي لإيران كانت مزمعة منذ قبل موضوع الرهائن، وذلك لأبحث مع القيادة الإيرانية آراء حول العلاقات العربية الإيرانية ولأبحث أيضا آراء المسلمين خارج إيران حول الدستور الجديد في إيران ولأواصل بحث وساطة كلفني بها بعض الأخوة الإيرانيين حول موضوع اختفاء السيد موسى الصدر. وعندما وقع حادث الرهائن اتصل بي الرئيس نميري طالباً تدخلي في الأمر لفك سراحهم، فاعتذرت قائلاً إن الأمر غير واضح في تلك المرحلة، وعلمت أن غيري توسطوا فلننتظر نتيجة ذلك. وأجلت سفري لإيران لمدة خمسة أسابيع. وعندما تمت الزيارة فعلاً هيأت لي فرصة مقابلة الشخصيات المهمة في الحكومة، وفي مجلس الثورة، وفي قم، وهما الإمام الخميني وآية الله شريعة مداري.

وفي اجتماعاتي مع هؤلاء السادة طرحت رأياً مفاده ألا معنى للحرص على عودة شخص الشاه المخلوع، وأن إصابة الرهائن بأذى سيجر لإيران وللإسلام أذى بالغاً ولكن دون هذين الأمرين يوجد أساس لمطالب إيرانية عادلة هي:

أ. لا بد من محاكمة تصرفات الشاه وإدانتها وكشفها للعالم أجمع، محاكمة للاستبداد وإيذاء الشعوب.

ب. لا بد من إجراء لإعادة أموال الشعب الإيراني التي هربها الشاه.

ج. لا بد من التحقيق حول السياسات والتجاوزات الأمريكية ورفع التظلم الإيراني من هذه السياسات.

إنني اقترح أن يفك الرهائن بموجب مشروع اتفاق يشمل الاستجابة لهذه المطالب الثلاثة العادلة. لقد وجدت استجابة واسعة لهذه الآراء عند جميع من تكلمت معه من المسئولين الإيرانيين. أما الإمام الخميني فإنه قال إن الاقتراح يستحق الدراسة وهذه أول مرة يقول مثل هذا الراي لأنه كان في العادة يرفض بحث موضوع الرهائن أو إذا بحثه ويقول إن إطلاقهم يكون مقابل تسليم الشاه.

إنني اعتقد أن استجابة أمريكا لهذه المطالب يمكن أن تكون أساساً لاتفاق عادل حول الموضوع، ويهمني أن اشير للآتي:

أ. ينبغي أن تأخذ أمريكا في الحسبان أن لها دوراً هاماً في احتجاز الرهائن لأن السماح للشاه بالدخول في أمريكا كان استفزازياً للمشاعر الإيرانية لأن الشعب الإيراني لا يصدق ولا يعقل أن يطلب منه أن يصدق أن العلاقات بين أمريكا والشاه علاقات إنسانية خالصة. إنه ينظر لهذه العلاقات في ظل حقيقتين هما:

- التجارب الماضية حيث لعبت أمريكا دوراً أساسياً في إعادة الشاه لعرشه في عام ١٩٥٣م واستمرت تدعمه.
- التحركات الحالية المضادة للثورة الإسلامية وبعضها يؤيد عودة الشاه لعرشه مما جعل استقبال الشاه في أمريكا بمثابة إشارة لأنصاره لرفع معنوياتهم والتلميح بأن الشاه عاد للميدان.

فإذا أدركت أمريكا أن لها دوراً هاماً في الظروف التي أدت لاحتجاز الرهائن وأدركت أن الوسائل الآتية لن تؤدي لحل:

- فلا التمسك بشكلية القانون الدولي تؤدي لحل لأن الإيرانيين وغيرهم لا يغالطون في أن احتجاز الرهائن مناف للقانون ولكن الموضوع لا يقف عند الشكل القانوني.
- ولا قرارات مجلس الأمن تفيد ما دامت قرارات تستجيب لجانب واحد من المشادة.
- ولا العقوبات الاقتصادية تجدي فإن الأوضاع العالمية الحالية تجعل من الممكن لأي دولة أن تخترق العقوبات الاقتصادية كما فعلت روديسيا لمدة ١١ عاماً.
- ولا العمل العسكري المضاد يجدي لأنه إذا قصد به إنقاذ الرهائن سيؤدي لموت الرهائن وستتفرع منه ظروف ستؤذي أمريكا أكثر مما تؤذي إيران.

إنني اعتقد أن القيادة الإيرانية يمكن أن تقبل اقتراحي كحل عادل. فما هي فرصة قبول أمريكا للاقتراح؟

وإنني اعتقد أن التفكير السياسي في إيران تجاوز الحرص على شخص الشاه كما

اعتقد أنه لا توجد نية لإيذاء الرهائن جسدياً.

وفي إطار هذه الانطباعات أرجو التعرف على استعداد أمريكا لرفع الظلامات الإيرانية بوضوح وجدية.

فانس: هذه أول مرة نطلع على رأي مدروس من جهة جادة، وسندرس آراءك ولكن هناك بعض الأسئلة نود أن نوجهها. السؤال الأول: لماذا تعتقد أنه لن يصاب الرهائن بأذى جسماني؟

الصادق: الإيرانيون يعلمون أن قضيتهم ليست ضد هؤلاء الأشخاص، فالرهائن وسيلة للتعبير عن السخط للسماح للشاه بالدخول في أمريكا، ووسيلة للفت النظر للمظالم الأخرى، وانطباعي مما سمعت أن الرهائن لن يصيبهم أذى جسماني وحتى إذا حوكموا فإن العقوبة التي أتوقعها هي أن يطردوا من إيران. هذا التقدير صحيح إذا لم تقم أمريكا بأعمال تستفز إيران وتعرض أرواح الرهائن لخطر.

فانس: السؤال الثاني: ما هي قدرة أي جهة: الخميني، مجلس الثورة، السيطرة على الأحوال في إيران؟

الصادق: إن ما يجري في إيران اليوم امتداد للموجة الثورية التي أسقطت الشاه، وهذه الموجة لها قيادة وقيادتها هي الإمام الخميني، ومجلس الثورة ذو دور استشاري. الموقف اليوم هو أن في البلاد تيار ثوري عارم يتحرك الشارع الإيراني بموجبه، وهذا التيار مهما كانت تجاوزاته لسياسات الحكومة الإيرانية يعتبر الإمام الخميني قائده.

فانس: إن أمريكا مستعدة أن تتفاهم ولكن كل وزير خارجية حاولنا التفاهم معه سقط فما هي الجهة التي نتحادث إليها؟

الصادق: إن منطق ولاية الفقيه، ومنطق حماس الشارع يجعلان كل وزير خارجية نمرة قابلة للاقتلاع السريع، والصحيح هو أن تدرك أمريكا نوع المظالم التي يعاني منها الإيرانيون وتستعد للتجاوب معها. إذا حدث هذا توجد وسائل تلائم الظروف الثورية الحالية وتكفل الوصول لتفاهم. أما إذا أرادت أمريكا حلاً دبلوماسياً أو قانونياً شكلياً فإنها لن تحصل عليه.

فانس: هل هناك حول الخميني من يؤثرون عليه؟

الصادق: الخميني سيد موقفه، وفي مجلس الثورة شخصيات صاحبة رأي تقوله في المجلس وتنصح به وتعلنه أيضاً، واعتقد أن الإمام الخميني يستمع لهذه الآراء ولكنه يتخذ قراره بنفسه.

فانس: كيف يمكننا أن نتصرف عملياً إذا أردنا بحث حل عادل؟

الصادق: أرى أن يقوم بهذا الأمر طرف ثالث وسيط ويمكن أن يكون هذا الطرف:

أ. جهة عربية مثل سوريا والجزائر وفتح.

ب. أو جهة عربية وإسلامية تشمل باكستان وربما نيجيريا.

ج. أوجهة من بلاد العالم الثلاث التي تنتصر للشعوب المستضعفة.

فانس: كيف يمكننا الاقتراب من الجهات الوسيطة هذه؟

الصادق: إذا كانت أمريكا مستعدة للاستجابة للمظالم الإيرانية فإن عدداً كبيراً من الجهات المقبولة ستتطوع للتوصل لاتفاق عادل. وإن لم تتطوع فثمة وسائل للاتصال بها وتحريكها في هذا الاتجاه.

ساندرز: سؤال: هل نركز على جهة واحدة أو على الجهات التي اقترحتها معاً.

الصادق: لا مانع من توضيح موقفكم لكل الجهات المذكورة للعلم، ولكن لا بد من اختيار جهة واحدة لمنع التضارب.

فانس: سؤال: ماذا تعتقد سيكون أثر أحداث أفغانستان على إيران من ناحية المخاوف على أمنها؟

الصادق: إن أحداث افغانستان فرصة لتنقل أمريكا اهتمامات الرأي العام وقد عبأت ضد إيران، لاتجاه آخر، هو اتجاه العلاقات بين الدول العظمى. أما بالنسبة للعالم الثالث فإن التفاهم أو المواجهة بين الدول العظمى هو الشيء المنطقي الذي يتوقع أن يحدث بدلاً من مواجهة دولة عظمى لدولة صغيرة. أما بالنسبة لإيران فإنه طبعاً يضيف خطراً آخر على ما تواجه من أخطار، والمباراة المطروحة هي أي الدول العظمى تنجح في إزالة

المظالم الراجعة إليها لتكسب صداقة الشعب المعني؟

سؤال: هل قابلت ابن الخميني وما هو أثره على الأحداث؟ وهل لمن حول الخميني من رجال أثر عليه؟ هل يجدون الشجاعة للجهر برأيهم أمامه؟

الصادق: لم أقابل ابن الخميني ولكن قابلت حفيده حسين وهو يمثل جيل الطلاب وحماسهم. إن أعضاء مجلس الثورة يذكرون آراءهم بصراحة وبعضها مخالف لراي الخميني بوضوح.

سؤال: ألا يجوز أن يكون الخميني حريصاً على الاحتفاظ بموقف الرهائن كما هو حتى يفرغ من الانتخابات المزمعة تحت الدستور الجديد؟

الصادق: في رأيي أن أزمة الرهائن ساعدت كلاً من الإمام الخميني والرئيس كارتر فالأول شدت الأنظار ووحدت الرؤية في بلاده أثناء الاستفتاء حول الدستور، والثاني رفعت أسهمه في أمريكا وفي نظري أن موقف الخميني بعد الدستور الجديد قوي، ويمارس صلاحيات ولاية الفقيه وهي صلاحيات بالنسبة لها رئاسة الجمهورية وغيرها من المناصب التي ستقوم بموجب الدستور الجديد ثانوية.

ولذلك لا أعتقد أن هناك ربطاً بين موضوع الرهائن والانتخابات، والذي يعطل موضوع الرهائن هو خطأ المحاولات الجارية لحله الآن لأنها محاولات لا تأخذ موقف الطرف الآخر في الحسبان.

فانس: سؤال: ما هو استعداد الاستمرار في مجهودك هذا؟

الصادق: منذ فترة اقتنعت أنه لا بد لنا كمسلمين وكبلاد تقع في العالم الثالث من الادلاء بدلونا ولذلك بدأت دراسة الموضوع وقررت أن أقوم بحملة لصالح آرائي هذه لتكون تعبيراً عن رأي المسلمين في الموقف الحالي، وسأستمر في دعوتي هذه رضى الطرفان أم رفضا، ولكن طبعاً يساعدنا أن نجد الطرفين مستعدين للتوصل لحل عادل ويسرني أن أعرف موقفكم في هذا الصدد.

فانس: نشكرك على ما تفضلت به وهذه أول مرة نطلع على جوانب صريحة من الموقف ومن جهة إن اختلفنا معها لا نشك في أمانتها فنحن شاكرون لك على بالغ

الاستنارة والبيان في أمر هام وحساس وإنني أريد أن أفكر فيما قلت وأبلغك موقفنا منه فإن كان مناسباً نجتمع غدا الصباح.

وبعد فانس ذكر الآخرون شكرهم على وضوح ما سمعوا وما نوروا به من حقائق وآراء صريحة.

الصادق: لا مانع نجتمع غدا صباحا إن شاء الله.

في يوم ٤/ ١/ ١٩٨٠ وقبل الدخول لفانس التقينا في مكتب دافيد نيوسوم أنا وهو والمستر بل ماينز وقال لي دافيد نيوسوم إن لديه ثلاثة أسئلة يريد معرفة موقفي منها:

أ. ما هو استعدادك للقيام بتوسط في هذا الموضوع؟

ب. هل تعتقد أن الدستور الجديد يخلق نظاماً يمكن أن نتعامل معه؟

ج. ما هي إمكانية قيام علاقة طيبة بين إيران وأمريكا مستقبلاً؟

أ. **الرد على السؤال الأول هو:** إذا كانت أمريكا مستعدة أن تدرك أخطاءها وأن تقبل مظالم الآخرين وأن تتوصل بجدية لحل عادل فإنني على استعداد للتوسط وإلا فلا أدخل في أمر أرفض قيمته.

ب. الدستور الجديد سؤدي لانتخابات رئيس جمهورية ورئيس الوزراء على نمط قريب من دستور فرنسا الجمهورية الخامسة وطبعاً وجود شخصيات منتخبة يعني أن لها سنداً وقواعد ويمكن مخاطبتها.

ج. أما الرد على السؤال الثالث فإنني اعتقد أن ثمة ثلاثة أسباب تجعل البلاد الإسلامية تحب أن تتعامل مع الغرب هي:

- أنتم لستم دعاة إلحاد منظم.
- أنتم مصدر تكنولوجيا مهم للتنمية والعصرنة.
- أنتم سوق قوي لمنتجاتنا.

ولكن ثمة أسباب تمنع تحقيق هذا التفاهم أهمها ثلاثة أسباب:

• أنتم تعملون دائماً لإقامة علاقات ثنائية قوية مع نظم استبدادية مما يفقدكم الشعوب فلا نيل لصداقة الشعوب مع حرصكم على التعامل مع جلاديها.

• أنتم وراء قيام والدفاع عن إسرائيل وعدوانها وهذا يمنع قيام علاقات حقيقية مع شعوب تقع ضحية العدوان الإسرائيلي.

• إن أمريكا هي السند النهائي للنظام العالمي الاقتصادي الراهن وهو نظام تتطلع الشعوب لتغييره بنظام عالمي جديد.

إذا لم تراجع أمريكا موقفها في هذه المناطق الثلاثة فإن رغبة البلاد الإسلامية أن تصادقها وتتعامل معها لن تتحقق بالمستوى المطلوب.

أما في موضوع إيران فإنه بالإضافة لتلك المسائل العامة توجد المظالم الثلاثة التي ذكرتها سابقا فإن قبلت أمريكا الاستجابة لرفع تلك المظالم وأظهرت ما يؤكد أنها سوف تفتح صفحة جديدة مبنية على التعامل العادل فإن هذا وحده هو السبيل لعلاقات قوية في المستقبل.

هنالك صحوة إسلامية تتطلب أساساً جديداً للعلاقات الخارجية وأنتم وغيركم أمام تحد؛ أيكم يقبل التعامل مع هذه الصحوة بالشروط والأسس العادلة التي تتطلبها؟

بعد ذلك انضم الينا المستر فانس فلخص له المستر ساندروز ما دار بيننا ثم توجه المستر فانس بالسؤال الآتي: ماذا ينبغي أن تكون صلاحيات الهيئة الوسيطة؟

الصادق: اقترح أن تكون صلاحياتها مقترحاتي الثلاثة.

ما هي ال Mechanics لقيام هذه الهيئة؟

الصادق: الاتصالات المباشرة بينكم وبين الإيرانيين ثم بينكم وبين الجهات المرشحة للاشتراك فيها.

فانس: نحن على استعداد أن تبدأ إجراءات إيرانية ضد ثروة الشاه في المحاكم الأمريكية علماً بأن ٩٨٪ من ثروته ليست في أمريكا فهل هذا يفيد؟

الصادق: النظرة القانونية وحدها لهذا الموضوع لا تفي بالغرض فأنتم عندما

توجهتم بإرادة سياسية جمدتم أموال إيران في المصارف الأمريكية دون إجراءات محاكم.

فانس مقاطعاً: إن ما فعلنا في هذا الصدد قانوني بحت وإذا عرض على المحاكم فستؤيده.

الصادق: على أي حال لا بد من وجود قرار سياسي حول موضوع ثروة الشاه فإن احتماء الشاه وراء شكليات قانونية يجعل إجراءات السلطة الإيرانية غير ذات فاعلية فإن قلتم إن السبيل الوحيد لردها هو المحاكم فإن هذا يعني عدم التوصل لحل. إن الشاه صديقكم ولا يمكن أن يظل خارج هذه الأزمة التي قامت بسببه لذلك عليكم الضغط عليه للقيام بأمرين هما: التخلي النهائي عن عرش الطاؤوس هو وذريته وبيان ثروته في الخارج والتنازل عن كل ما لا يلزم لحياته العادية للشعب الإيراني لرد هذه الأموال لتستخدم في أغراض تعويض وإعاشة ضحايا العنف..إلخ. إذا فعلتم ذلك فإنه يدل على جدية واستجابة لبعض المظالم ولكن إذا بقيتم في حد الإجراءات القانونية وحدها أقول لكم هذا لن يقبله أحد.

فانس: هذه آراء مفيدة جداً.

الصادق: أريد أن أوجه لكم سؤالين؟

الأول: لماذا لا تفرغ أمريكا التأزم الحالي بإعلان الآتي:

- أنها لا تستطيع تسليم الشاه.
- أنها لن تسكت على إيذاء الرهائن.
- أنها تقبل أن لإيران مظالم مشروعة.
- أنها مستعدة أن تعاون على قيام هيئة مقبولة لكل الأطراف للتحري حول المظالم الإيرانية.
- إن أمريكا سوف ترفع تلك المظالم.
- بناء على رفع المظالم فإن أمريكا مستعدة أن تفتح مع إيران صحفة جديدة.

فانس: مستعدون لقبول هذا الاتجاه فيما بيننا ولكن إعلانه سيكون صعباً. كذلك الوقت يضيق بنا لأن الصمت الذي فرضه السياسيون الأمريكيون على أنفسهم حول هذا الموضوع لم يعد قائماً مما يوجب الرئيس عمل شيء يرتضيه الرأي العام.

الصادق: موضوع أفغانستان منحكم مزيداً من الوقت. كذلك ما هو بديل هؤلاء السياسيين؟ إن عدم وجود بديل هو الذي سيفرض عليهم مزيداً من الصمت فإن انطقوا فنطق يؤذيهم سياسياً.

فانس: هذا صحيح.

الصادق: سؤال آخر: هل أنتم موافقون على اقتراحي بصفة محددة كوسيلة لحل الأزمة؟

فانس: لا بد أن أناقش هذا الموضوع مع الرئيس كارتر وأن نستمع لتقرير السكرتير العام للأمم المتحدة بعد عودته ونفيدك برأينا المحدد.

ماينز: ما هو تصورك: أن يطلق الرهائن بعد تنفيذ الاقتراح أم أن يطلق الرهائن قبل ذلك؟

الصادق: التوقيت عرضة لاتفاق الطرفين، ولكن اقتراحي هو أن يكون الأمر في شكل حزمة package يتوصل إليها في وقت واحد.

فانس: نشكرك مرة أخرى على لقاء مفيد للغاية، فقد اطلعتنا على مواقف حضارة لا نلم بها تماماً في إطار إدراكك للصعوبات التي نواجهها نحن أيضاً.

يوم السبت ٥/ ١/ ١٩٨٠ جرت محادثة هاتفية بين المستر ساندرز والصادق.

المحادثة:

ساندرز: لقد قابلنا أنا ووزير الخارجية رئيس الجمهورية وأطلعناه على اقتراحاتك، واستقبلها إيجابيا وقال إنه سوف يستمع غداً لسكرتير عام الأمم المتحدة، ثم يعطيك رده على مقترحاتك، وسوف نتصل بك حيثما كنت لتوصيل ذلك الرد ولا أعتقد أنه سيكون بعيداً من اقتراحاتك.

الصادق: سأكون متوقعاً الخبر منكم، ولكن هل لديكم فكرة عن انطباعات السكرتير العام؟

ساندرز: لقد تحدث معه وزير الخارجية بالتلفون، ويبدو أن تجربته في طهران كانت مروعة مخيفة، وقال إنه وجد الأمر معقداً جداً، وأنه يحمل بعض الآراء الإيجابية نتيجة مقابلته لمجلس الثورة وعندما نعرف هذه الآراء سننقلها إليك.

الصادق: أنا مسافر إلى لندن ثم ليبيا ثم الخرطوم، وأرجو أن يصلني ردكم المحدد لأرى ما أفعل.

ساندرز: حسن ونكرر لك شكرنا.

هذا هو ما دونه السيد الصادق حول تلك الاتصالات.

ودوّن لاحقاً حولها التالي[1]:

(أنا وآخرون من مفكري العالم الثالث أذكر منهم أحمد مختار أمبو رأينا أن نتدخل في أزمة الرهائن لحلها على أساس سليم وكان يهمنا في ذلك أمران:

الأول: ألا يؤخذ على بلد إسلامي أنها أسرت مستأمنيها.

الثاني: أن في حل الأزمة ما يحسن فرص انتخاب الرئيس كارتر أمام منافسه السيد رونالد ريجان وتقديرنا أن انتخاب كارتر أفضل للعالم الثالث. واقترحنا حلاً عادلاً ومناسباً، ولكن للأسف لم نجد تجاوباً من القيادة الإيرانية. ثم حلت الأزمة بشروط أقل كثيراً في حق إيران من الأسس التي اقترحناها.)

اتجه السيد الصادق بعدها وفقما نوّر المسؤولين الأمريكيين إلى لندن، ثم ليبيا، ثم إلى الخرطوم.

أما لندن فقد كان يجعلها محطة يزور فيها الحبيبتين أمي رحمة وأمي سارا رحمهما الله، كما كانت موئلاً للساسة السودانيين المعارضين.

وفي ليبيا كان هناك الأنصار المهاجرين ومعسكراتهم التي لم تتم تصفيتها بعد، ومثلما

(١) من كتاب الديمقراطية في السودان راجحة وعائدة

كتب السيد غراهام توماس فقد استغرقت منه مهمة عودتهم وتنظيمها زيارات مكوكية لليبيا، وجهداً في تلك السنوات.

رحلة الجزيرة أبا ١٩٨٠م

رأى الحبيب الصادق أن يصوم رمضان ذلك العام (يوليو- أغسطس ١٩٨٠م) في الجزيرة أبا ويقضي عيد الفطر هناك كما درج قادة الكيان، ويصحب أسرته معه وعدد من شباب الأسرة الممتدة بالتنسيق مع رابطة شباب أسرة الإمام المهدي وخلفائه. وهي الرابطة التي شجع قيامها بقوة حال عودته للسودان، واجتمع بالشباب كثيراً لحثهم على الاهتمام بصلة الرحم وبالتعرف على إرث المهدية وتعاليمها.

وهناك، في أبا، نظم لنا دروساً حول أسرة الإمام المهدي وحول المهدي ودعوته، وكان ذلك الدرس مطلوبا بالنسبة لنا فغالب أبناء وبنات جيلنا ما كانوا يعرفون عن الأجداد والجدات شيئاً كثيراً.

وفي يوم ١ أغسطس/ ٢٠ رمضان ألقى الدرس الأول وتحدث فيه عن أهمية العلاقة العائلية وصلة الرحم في الدين، وتحدث بعد ذلك عن أسرة الإمام المهدي وتعريفه لها المقتبس من حديث الإمام المهدي نفسه أنها مكونة من ذرية ستة رجال: الإمام المهدي وخلفائه الثلاثة (عبد الله بن السيد محمد وعلي الحلو وشريف بن السيد حامد) إضافة لذرية أخويه حامد ومحمد، وقال لنا: (*إن قصتهم من أحفل قصص التاريخ بل أعتقد أنه في الأدب العربي والأجنبي يصعب أن نجد قصة أكثر تنوعاً ودراما، قصة باهرة ومشحونة بالإنجازات والمآسي! أنتم في صغر سن بعضكم لا بد من الاهتمام بهذه الأمور ففي سيرة الأسرة هذه الدليل على الوعي المبكر: الإمام المهدي اتجه نحو العلم والتحصيل منذ النعومة، والإمام عبد الرحمن بدأ يتصرف كمسئول منذ سن ١٣ عاماً. فالمطلوب منكم الوعي والاستعداد*).

ثم تحدث عن نسب الإمام المهدي وتاريخ أسرته قبل أن يفصل في بيان دعوته وملامحها وأهم المنشورات التي أصدرها.

كانت حلقات مهمة جداً في تكوين وعينا، وفي حقننا بأهم جرعات الأنصارية مباشرة عبر الوريد. فتشربها منا من كان مخ عظمه مخلوطاً بمحبة الإمام المهدي، ومحبته

تتسلل قبل المعرفة والاطلاع عبر مرويات كثيرة سمعناها ورددتها الأمهات.

تحركات خارجية ١٩٨٠م

هذه الفترة من حياة السيد الصادق، أو قل هو ديدن حياته، فيها حركة دؤوبة بين داخل البلاد وخارجها للمشاركة في مناشط عديدة سياسية، وفكرية، ودعوية، ودبلوماسية شعبية كما ذكرنا.. ومن الصعب جداً تتبع هذه الحركة حتى لمتابعها. فنحن في مكتبه الخاص الآن إن أغفلنا الرصد لعام واحد يصعب علينا تتبع كل ما قام به من رحلات خارجية وداخلية، ومشاركة في مؤتمرات واجتماعات وغيرها من المناشط، فما بالك وهذه التحركات قد مرت عليها الآن عقود.. سأكتفي فقط بما وجدت مدونات حوله ضمن أوراق السيد الصادق، أو ما ظهر في كتابات أخرى.

الدعوة في نيجريا، ١٩٨٠م

في فترة وجود السيد الصادق بالخارج أعاد علاقاته بالأنصار بنجيريا بشكل كبير، وخاصة أسرة السيد أبو بكر (قربة) سعيدو حياتو، فكانت علاقته وعلاقة أمي سارا رحمها الله بهم خاصة بنتيه وابنه زينب وأسماء وفاروق جيدة للغاية.

وفي زيارات لنيجريا، صحبته في بعضها الحبيبة السيدة سارا رحمها الله قام الحبيب بالاتصال بالأنصار هناك لربطهم بحركة الصحوة التي انتظمت الكيان، وبالفعل زار قراهم واطلع على تمسكهم بالعقيدة واستمرارهم في حلقات الراتب بانتظام، ولكنهم لا يزالون لم يصلهم التجديد الذي طور في أساليب الدعوة على يدي الإمام عبد الرحمن، فهم مع كثرتهم معزولين عن إشعاع البعث الديني في الطورين الثاني والثالث للمهدية في السودان وفي المشرق عموماً، وجدد العلاقة مع الشيخ أبو بكر (قربة) سعيدو حياتو الذي آلت له القيادة في أسرة الشيخ حياتو.

وكان ابنه فاروق الشاب يدرس حينها الهندسة الكيميائية في إنجلترا، فكان يقضي أيام إجازته الأسبوعية في منزلنا مع أمينا رحمة وسارا وأحيانا يلاقي السيد الصادق، ويلاقينا في الإجازات. بل زار السودان وأقام معنا شهوراً.

وقد وجدت في أجندة السيد الصادق للعام ١٩٧٧ م ذكر متكرر للعلاقة بآل الشيخ في نيجريا، وأن (تكون لجنة تتجه لمؤتمر جامع ينظم العمل في نجيريا).

الشاهد، في العام ١٩٨٠م ذهب السيد الصادق لإلقاء محاضرات في نجيريا، في جامعات سكوتو، وكانو، وأحمد بيللو، تفاصيلها كالتالي:

- محاضرة: المهدية في الإسلام Mahdism in Islam، في جامعة كانو في ١٩ أبريل ١٩٨٠م، وكانو تمثل معقل الإسلام في نيجيريا، فيها التجانية والقادرية، والأنصار، في المحاضرة خاطب السيد الصادق فكرة المهدية في الإسلام، ومدارس المهدية في الفكر الإسلامي، والأسس التي قامت عليها الدعوة المهدية في السودان، والمأزق الحالي للعالم الإسلامي وما تقدمه تعاليم المهدية لحله. وهذه تعتبر محاولة لمخاطبة فكرة المهدية بالنسبة لأتباعها الكثر في نيجيريا ولغيرهم للانصراف عن الخطاب العجائبي والنظر للمهدية كدعوة لإحياء الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما، أي وظيفة إحياء الدين. هذه الأفكار تطورت لاحقا في كتاب (أيديولوجية المهدية) ثم في ورقة (عبد الرحمن الصادق إمام الدين).

- محاضرة: التغيير الاجتماعي في الإسلام Social change in Islam ، بجامعة سوكوتو في ٢٥ أبريل ١٩٨٠م، وفي المحاضرة أظهر كيف أن الدين الإسلامي على مر التاريخ كان ملهماً للثورات والحركات والقادة المنادين بالتغيير وبرفض الظلم الاجتماعي والاستبداد، وتعرض للجمود اللاحق الذي ألم بالعالم الإسلامي، والدعوة الحالية للتغيير الراديكالي وشروطه الضرورية، والحاجة للهدى الإسلامي، وتعامل الإسلام الإيجابي مع التغيير الاجتماعي. والمحاضرة أساسية لبعث الإسلام واستنهاض الهمم به.

- النظام الاقتصادي في الإسلام The Economic System of Islam ، محاضرة في ٢٩ أبريل ١٩٨٠م بجامعة أحمدو بيللو بنيجريا، وفيها ناقش المسألة نظرياً ثم تاريخياً، وتعرض لطبيعة الإسلام، وفي النهاية ناقش أزمة الاقتصاد في العالم الثالث على ضوء التعاليم الإسلامية.

المؤتمر الإسلامي في طشقند

ومن ضمن ما ذكره السيد غراهام توماس زيارة السيد الصادق إلى روسيا بدعوة من السوفييت، حيث حضر المؤتمر الإسلامي في طشقند في صيف أو خريف العام ١٩٨٠،

(وفي ذلك المؤتمر بشجاعته المعهودة رفض الصادق الموافقة على قرار يخدم مصلحة السوفييت، واستبدله بقرار يدعو إلى حرية المسلمين في أن يزوروا مكة، ومساندة الإسلام في الاتحاد السوفيتي. وكان مما أرضى الحكومة السوفييتية والسوفييت من غير المسلمين أن أجيز كلا القرارين. وقد تأثر الصادق بعمق المسلك العام للموظفين الرسميين في المؤتمر، وأدهشه جداً أن يجد كثيراً من العلماء فيهم يتكلمون العربية ويقرأونها بدرجة من الإتقان. كانت تحيته من قبل هؤلاء تتم بحماسة، وكثيراً من الروس أخبروه بأنهم مسلمون أولاً ثم روس بعد ذلك)[1].

المعسكرات.. ورحيل الشريف الأليم

كتب السيد غراهام توماس: وطوال معظم سنة ١٩٨١م كان الصادق منشغلاً في إعادة توطين اللاجئين السودانيين الذين كانوا لا يزالون في ليبيا وأثيوبيا منذ فر الأنصار إلى هناك[2].. ثم تحدث عن إقامته هو وزوجته الخالة إزماي فترة في السودان، وتأزم الأحوال هناك وحدوث اضطرابات في أوائل يناير ١٩٨٢م انتشرت في طول السودان وعرضه كان فيها مصابين في مدن السودان المختلفة بلغ مجموعها ٢١٨ إصابة في مدني وعطبرة وبورتسودان، وبحسبه أن (الأنصار لم يشاركوا فيه لأن غياب الصادق المهدي أربكهم فلم يتخذوا قراراً بشأن ذلك)[3].

وذكر أنه ذهب لمقابلة النميري في يناير ١٩٨٢م، وأثناء وجوده معه جاء خبر وفاة الشريف حسين الهندي من السعوديين الذين يسألون إذا كان النميري سيسمح بإدخال جثمانه البلاد وقد (توفي فجأة في أحد فنادق أثينا في اليونان قبل بضعة أيام).

توفي الشريف حسين رحمه الله في ٩ يناير ١٩٨٢م..

لقد كانت وفاة الشريف حسين حدثاً مأساوياً فقد كان الشريف أحد رموز المعارضة البارزين ضد التسلط المايوي، وكان النظام المجرم لا يزال جاثماً على صدر الوطن.

وقد تحول تشييع جثمانة في بري اللاماب إلى مظاهرة شعبية ضخمة عبرت فيها

(١) توماس، سابق ص ١٩٧
(٢) نفسه ص ١٩٩
(٣) نفسه

جماهير العاصمة عن تقديرها لنضاله ودوره في المعارضة وتطلعها لإسقاط الديكتاتورية، وواجهت سلطات الأمن الحدث باعتقالات وسط قيادات الحزب الاتحادي الديمقراطي، واتخذت إجراءات أمنية مشددة بإنزال أعداد كبيرة من الشرطة ورجال الأمن والدبابات في المطار وجامعة الخرطوم والبراري[1].

قال غراهام إن نميري أثار أثناء لقاءهم المذكور قضية الصادق المهدي و(بين عدم رضاه بل انزعاجه الظاهر من ذلك. وكثيراً ما كان يكرر سؤاله لي: لماذا ذهب إلى ذلك الرجل؟ يعني القذافي، لم يكن ينتظر جواباً حتى حين قال: لماذا لم يأت الصادق إليّ؟ أنا سوداني مثله وهو سوداني: أنا من الأنصار.. ثم قال بشكل يثير الدهشة: كان المهدي أحد أجدادي)! وقال السيد غراهام إنه قال له إنه يظن أن ميل الصادق إلى ليبيا إنما ليقابل في الميزان (ميل الرئيس الشخصي إلى مصر). وقال إن النميري برر له ميله لمصر بوجود ١٨ ألف طالب سوداني في مصر لو طردوا يمكن أن يسببوا له المتاعب[2].

الشاهد، إن النميري كان غاضباً جداً بسبب تمنع السيد الصادق عن قبول عرضٍ ظنه لا يرد بأن يكون نائبه وخليفته، وسنرى أنه فكر في كيفية تأديبه بمصادرة مكاتب هيئة شئون الأنصار، ثم مبايعة السيد أحمد المهدي إماماً للأنصار.. ولكن غيظه ما خمد!

المجلس الإسلامي الأوربي

السيد سالم عزام رحمه الله دبلوماسي سعودي (من أصل مصري) كون ببريطانيا عام ١٩٧٣م المجلس الإسلامي الأوربي، وجذب إليه (شبكة فريدة من المفكرين والساسة الإسلاميين الذين اجتمعوا في سلسلة من المؤتمرات والندوات التي عقدت في لندن في أواخر سبعينات وثمانينات القرن العشرين لصياغة وتحديد الموقف الإسلامي حول مجموعة من القضايا المعاصرة)[3]. بعد أن خرج الصادق من المعتقل ثم سافر للندن عام ١٩٧٤م انضم هناك لمجهودات المجلس الإسلامي الأوربي وكون صداقة حميمة مع السيد سالم عزام.

(١) محمد علي جادين تقييم التجربة الديمقراطية الثالثة في السودان ص ٥٣

(٢) نفسه ص ٢٠١

(٣) موقع مجتمع سلام على الإنترنت
http://www.salaam.co.uk/knowledge/muslim_community.php

وقد عقد المجلس مؤتمراً في قاعة ألبرت في عام ١٩٨٠ حول «الرسالة المحمدية»، بعد ذلك تم تكوين مجموعة صغيرة من المفكرين المنضمين للمجلس كاستجابة إسلامية للإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر من الأمم المتحدة.

انعقدت مناقشات تلك المجموعة العديدة في مكاتب المجلس الإسلامي الأوربي في ١٦ غروسفينور كريسينت، هايد بارك كورنر، وبحسب «مجتمع سلام» ببريطانيا فقد تكونت المجموعة من: رئيس الوزراء السوداني الأسبق الصادق المهدي، واثنين من الخبراء القانونيين الباكستانيين الكبار حينها وهما عبد الله كدباكش بروهي وخالد إسحاق، والقاضي مدحت عزام، والدكتور الخولي من مصر. ونتج عن تلك الاجتماعات ورقتان آسرتان للفكر الإسلامي في تلك الفترة: «نموذج دستور إسلامي»، التي نشرت في عام ١٩٨٣، و«الإعلان العالمي الإسلامي لحقوق الإنسان» التي نشرت قبلها بعامين أي نشرت عام ١٩٨١م[١].

وقد علق مجتمع سلام بأن إصدار تلك النشرات في مدينة أوربية عوضاً عن صدورها من داخل العالم الإسلامي هو أمر ذو دلالة في حد ذاته حيث لم يمكن صدورهما في العالم الإسلامي مع نمط الأنظمة والممالك الاستبدادية المستمرة في السلطة لا على أساس تفويض شعبي، ولكن عبر الشرطة السرية والتحالف مع الولايات المتحدة أو فرنسا. واعتبر المجتمع أن الرؤية لنظام اجتماعي عادل على أساس القيم الإسلامية قد عقدت الأمل في مستقبل أفضل. وإن المفكرين الذين ألفوا وثيقة «نموذج دستور إسلامي» هذه لم يعتقدوا أن هذا التغيير كان أمراً في متناول اليد، ولكنهم اعتبروا من واجبهم ضمان توفر بعض الأسس النظرية. وقال المجتمع في تعريفه بتلك الوثائق إن القانوني الباكستاني الضليع عبد الله كدباكش بروهي كان قد لاحظ أن تحقق الدولة إسلامية رهين بمجتمع متعلم، من خلال تفكير ديمقراطي القلب، يتوخى تمكين جميع الناس من خلال التعليم حتى يتمكنوا من اتخاذ خيارات مدروسة[٢].

الشاهد، إن السيد الصادق كتب لاحقاً كتيب (الدولة في الإسلام) مؤكداً عدم وجود

(١) المرجع السابق
(٢) نفسه

ما يسمى ب(الدولة الإسلامية) ولكن دولة المسلمين، وهذا ما سوف نتعرض له في حينه.

أما عن المجلس الإسلامي الأوربي ومشاركته في أنشطته فقد كتب قائلاً:

(كان العالم الاسلامي منذ ١٩٧٥ م يمر بمرحلة أطلق عليها «الصحوة الاسلامية» وهي مرحلة انصراف عن الأيدلوجيات الوافدة واستقبال للبعث الاسلامي. وكثرت على الساحة الإسلامية نداءات الصحوة الإسلامية ومن بينها منبر عالمي اسمه المجلس الإسلامي الأوربي مركزه في لندن كان الأنصار والأخوان المسلمون السودانيون أعضاء في هذا المجلس. ومساهمة من هذا المجلس في فكر الصحوة الإسلامية وضع بمشاركة واسعة من أعضائه من كل أنحاء العالم الإسلامي وموافقتهم وثائق أساسية توضح النظام السياسي الإسلامي، والنظام الاقتصادي الاسلامي، وحقوق الانسان في الاسلام، ومشروع دستور إسلامي، وكان أمين عام هذا المجلس الأخ سالم عزام وهو مسلم مخلص شجاع ينسق مجهودات الجميع ويدعو المؤتمرات لمناقشة ونشر هذه الوثائق الهامة.

وأهم سمات هذه الوثائق:

أ-أن النظام السياسي الإسلامي يقوم على الشورى والحرية واستقلال القضاء.

ب-أن النظام الاقتصادي الإسلامي يقوم على العدالة وكفالة معيشة الكافة.

ج-أن حقوق الانسان في الحرية والكرامة والحرمات الشخصية والعدالة هبة من الله ولا يجوز لبشر أن يعتدي عليها.

د- أن النظام الإسلامي يقيم الحرية والعدالة الإجتماعية ويحمي الحقوق بالعقوبات الشرعية فالنظام قبل الحدود والحدود لحماية النظام.

وكان أمين عام المجلس الإسلامي يبعث بهذه الوثائق للحكومات الإسلامية مناشدا لها وللمفكرين والدعاة والحركات الإسلامية التجاوب معها.

وهكذا خلق المجلس الإسلامي رأياً عاماً إسلامياً ذا معالم واضحة وقفت جنباً إلى جنب مع أطروحات البعث الإسلامي الأخرى التي زحمت الساحة الإسلامية.)

دار المال الإسلامي ١٩٨١م

شارك السيد الصادق في المجلس الاستشاري لدار المال الإسلامي الذي تأسس في سويسرا عام ١٩٨١م، وقد اشترك فيه للعمل على تطوير صيغ اقتصادية إسلامية حديثة في مجالات الاستثمار والبنوك والمصارف، ولكنه لاحظ أن المؤسسة تنحو نحو إحياء مسميات الدولة الاسلامية التاريخية (كالمرابحة والمضاربة) بدون مراعاة مقاصد الشريعة فاستقال، وكتب نصحه للحركة المصرفية والاقتصاد الإسلامي بعمومه في كتاب «المنظور الإسلامي للتنمية الاقتصادية» الصادر من لندن عام ١٩٨٤م. وما فتيء ينتقد التجربة المصرفية الإسلامية الحديثة وأسسها التلفيقية التي أضرت أكثر من نفعها وتعد الأبعد عن مقاصد الشريعة من سعر الفائدة الذي حرمته باعتباره ربا.

وهو يعتبر هذه الخطوة، أي انضمامه لدار المال الإسلامي، من الأشياء التي ندم عليها فقد قال لي مرة: هي تجربة أود لو أنني ما كنت جزءاً منها، وفهمت أنه غادر دار المال الإسلامي سريعاً، وصار ينظر بغير تفهم للأهداف التي تحرك التجربة.

مؤتمر الجزائر ١٩٨١.. وأحمق ذكرين!

كان السيد الصادق مشاركاً فعالاً في كثير من المؤتمرات الإسلامية، ولا يزال حفظه الله، ومن الطرائف التي يرويها أنه دعي لمؤتمر إسلامي في الجزائر في عام ١٩٨١م فقام أحد خطباء الوفد اليمني وكان عالماً تقليدياً وألقى خطابه بكل جدية مركزاً على الآتي:

- *الإفرنج هم أعداؤنا ويريدون إطفاء نورنا وصدنا عن الحق الذي نحن فيه، والدليل على ذلك أن تراثنا يدور حول الجامع وهو مكان خير وبركة وبرهان فضله أنه مذكر، لكن الإفرنج حرفونا عن ذلك ويريدوننا أن نلتف حول الجامعة وهي مكان شر وفساد وبرهان فسادها أنها مؤنثة!!*

- *أننا نخاطب بعضنا البعض بألقاب فاضلة مثل الشيخ، الحاج، العالم، الفقيه وهلم جرا! ولكن الإفرنج حرفونا عن ذلك وجعلونا نتسابق للتسمي باسمي أحمق ذكرين هما الديك والثور فنقول: ديكتور!!*

***

جامعة كاليفورنيا يونيو ١٩٨٢م

ألقى السيد الصادق في هذه الجامعة محاضرة بعنوان: الإسلام والثورة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا [١]، قدمها بدعوة من مركز دراسات الشرق الأوسط ومركز الدراسات الأفريقية بجامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة في يونيو ١٩٨٢م.

في تلك المحاضرة نقض السيد الصادق الفكرة التي راجت لدى دارسين أمثال سيد حسين نصر أن الثورة تتناقض مع الإسلام، وأمثال المستشرق ريتشارد ميشيل الذي كتب عن مجتمع الأخوان المسلمين في الستينات وتوقع أن ينزوي الشعار الإسلامي في مصر وأن تسود القومية الناصرية، وكذلك توقعات خورشيد حيدر المماثلة في باكستان، وقطع بأنه لا يمكن الفصل بين الإسلام والسياسة بدون إفراغ الإسلام لأنه يهتم بحال المسلمين كما يهتم بأخراهم، وفي النهاية ناقش المهددات الفكرية التي تواجه الشعار الإسلامي ولخصها في التقليدية (ما سمي بالأصولية أو العودة لماضٍ معين وهو ما سماه لاحقا بالانكفاء)، والعلمانية (مؤكداً أنها تهدد عقيدة سلبية تجاه العالم بينما الإسلام إيجابي إزاءه)، والشيوعية (مؤكداً التلاقي معها في رفض الإمبريالية والاختلاف في الفكر المادي)، ومشكلة الأقليات (مؤكداً أن الإسلام يبيح التعددية وحقوق الأقليات في إطار الوحدة)، والطائفية التي اعتبرها مهدداً حقيقياً، مركزاً على الانقسام السني الشيعي، ومؤكداً وجود أسس للتلاقي بينهما في كتابات أمثال عباس العقاد بين السنة، وآراء د. علي شريعتي بين الشيعة والذي يركز على مركزية الأمة في مقابل الفقيه أو الإمام.

وهذه من أهم المحاضرات التي شرحت واقع العالم الإسلامي، داعية لفكر مستنير في استنهاض الإسلام ومواجهة تحديات ذلك البعث.

وواضح أن قراءته صدقها الواقع، فالمد الإسلامي ظل في ازدياد وليس انحسار وفقما تنبأ.

***

(١) Islam and Revolution in the Middle East and Northern Africa

جماعة الفكر والثقافة الإسلامية أكتوبر ١٩٨٢

كان السيد الصادق حينها ولا يزال مشغولاً بضرورة البعث الإسلامي، ومهموماً بضوابط له حتى يأتي مستجيباً لتحديات العصر، ومتخذاً سبيل الشورى والحرية، ومراعياً لظروف البلدان الإسلامية المختلفة.

فسعى مع آخرين من زملائه في الهم الإسلامي داخل السودان، لتكوين جماعة الفكر والثقافة الإسلامية لتنادي بهذه المعاني وتعمل لها ببلورة فكر إسلامي مستنير وعصري ومراعٍ لتحديات الشعوب.

وكان تحالفه مع جبهة الميثاق الإسلامي قد امتد نحو عقدين، يلتفون حول الشعار الإسلامي وتطبيقه على أرض الواقع السياسي السوداني. فتداولوا جميعا إضافة لمفكرين إسلاميين مستقلين أمثال الدكتور مدثر عبد الرحيم وكونوا جماعة الفكر والثقافة الإسلامية.

وفي أكتوبر ١٩٨٢م عقدت هذه الجماعة مؤتمرها الأول، وقد شارك فيه السيد الصادق بورقة حول (مستقبل الإسلام في السودان).

سرد السيد الصادق في الورقة تاريخ دخول الإسلام في السودان، ووصف خارطة الجماعات الإسلامية من طرق صوفية وكيان الأنصار وجماعات الأخوان المسلمين وأنصار السنة محللاً دورها ونقائصها، ثم سرد محاولات الاهتداء بالإسلام في السودان وقال:

(هذه المحاولات لم تثمر بعد واقعاً جديداً ولكنها ساهمت في بلورة الرأي العام عن مطلبي الإسلام والحرية وهما في الواقع مطلب واحد، لأن الحرية هي أوثق طريق للإسلام وأضمنه، وتطبيق الإسلام يكفل الحرية ويحميها. ولكيلا تفترق بنا السبل ينبغي أن نؤكد:

- *أن الوسائل الفوقية لا تجدي في تطبيق الإسلام.*
- *وأن الوسائل الانقلابية تأتي بنتائج عكسية.*
- *وأن طبيعة السودان والدرس المستفاد من تاريخه هو أن شعارات الإسلام وبرامجه ينبغي أن ترتفع على قواعد الشعبية والحرية).*

ونادي في النهاية ب: (*التزام المنابر الإسلامية كلها موقفاً محدداً ومرناً تمتنع بموجبه من التعامل مع أي جهة فكرية أو سياسية إلا اذا كان ذلك التعامل يخدم قضية الإسلام ويراعي الوسيلتين المختارتين للبعث الاسلامي: الشعبية والحرية*).

توجس السيد الصادق هذا من جهة فكرية أو سياسية تضر الدين بفصمه عن الحرية والشعبية كان متصلاً بما جرى حينها في باكستان، حيث عين ضياء الحق في ذلك العام مجلس شورى (بلا صلاحيات للتشريع ولا يمثل الشعب) بادعاء أن مثل هذا المجلس هو الأقرب للإسلام.. وكان كذلك كمن يقرأ المستقبل القريب الآتي في السودان! إذ سرعان ما قام النميري بتبني الشعار الإسلامي بانتهازية قصوى، وسرعان ما أيدته جماعة جبهة الميثاق لأن التبني يعطيها مبرراً لتأييدها للنظام بلا مبرر.

ولا أنسى أن السيد الصادق وصف موقفهم ذلك بقوله «المـا عنـدها تيلـة، تسـوي الحد حيلة» والتيلة عقد تلبسه النساء، والمثل يصف حال تلك التي تبرر عدم تزينها بأنها في حالة حداد على ميت، بينما هي في الحقيقة لا تملك تيلة تتزين بها أصلاً!

نحن سنأتي على تلك التجربة فدعونا لا نسبق الأحداث، المهم إن هذه الجماعة قد تكونت بأهداف واضحة، ولكن يبدو أن التعثر كان لها بالمرصاد، وفي أول الطريق.

نشاط الهيئة ومصادرة بيت المهدي ١٩٨٢

تحدثنا عن تكوين هيئة شئون الأنصار منذ ١٩٧٩م ببناء تأسيسي جديد، ورصدنا مجهودات الهيئة التنظيمية والدعوية، وعبرها أمكن تنظيم معسكرات دعوية كل عام بدءاً من العام ١٩٧٩. وقد روى لي الحبيب الدكتور دفع الله محمد عبد الله أنه شارك في ثالث معسكر منها في الفترة ١-١٥ مايو ١٩٨٢م والذي نظمته الهيئة، وكان بقبة الإمام المهدي التي تمت إعادتها للأنصار بعد العودة في ١٩٧٨م. وقال إن المعسكرات جرت في ذلك العام في عدد من المناطق في ذات الآن وهي إضافة للقبة أو بيت المهدي: الجزيرة أبا، قرية الخضر بغرب الجزيرة، والقضارف.

وأذكر أنه وغيره من الطلاب الأنصار كانوا كثيراً ما يترددون على منزلنا، فتعرفت على بعضهم منهم الحبيب دفع الله والحبيبة زينب أحمد صالح وغيرهما. وكانت علاقتهم

الأقوى كما روى دفع الله مع المرحومة أمي سارا إذ كانوا يتخذونها معبراً لمخاطبة الحبيب، فإذا أرادوه في محاضرة أو لقاء هيأت لهم ذلك. وقال إنه كان كثيراً ما يحاضرهم في القضايا المختلفة، وفي مرحلة معينة نظم لقاء أسبوعياً بهم كل ثلاثاء. وفي ذلك اللقاء كان يناقش معهم إصداراته الجديدة ويحثهم على نقد رؤاه ومده بالحجج التي يعتقدونها أقوى مما جاء به، والشواهد القرآنية ومن الحديث النبوي التي تبدو برأيهم أقوى مما استشهد به.

وبعد المعسكر الثالث للطلاب، ومع تزايد نبرة الانتقاد للنظام، برم النميري بنشاط الأنصار في القبة وقامت السلطات بمصادرة مجمع بيت المهدي في ٧/ ١١/ ١٩٨٢م وتسليمه للسيد أحمد المهدي.

السيد غراهام توماس يروي قصة أدت للمصادرة شبيهة بما حدث لاحقا عام ١٩٩٧م في عهد (الإنقاذ) بعد خروج السيد الصادق في (تهتدون)..

قال السيد غراهام والذي كان يعمل على سيرة ذاتية مصورة للإمام عبد الرحمن المهدي: (كان السيد أحمد عبد الرحمن، والذي يمتلك معظم الصور الفوتغرافية المطلوبة، على علاقة غير حسنة مع ابن أخيه الصادق المهدي، زعيم المعارضة السودانية، بل كانت علاقاتهما متوترة جداً، إلى درجة أنه حدث يوم الجمعة الماضي أن رفض الأنصار استقبال أحمد هذا وطردوه من القبة عندما حاول أن يقوم بإمامة الصلاة، يومذاك ارتفع بين الأنصار المتواجدين صوت يقول لقد جئنا لنستمع إلى سليل المهدي وهذه إهانة بالغة لحفيد المهدي. كان الصادق وهو أحد أحفاد المهدي عندما سمع أن أحمد في القبة ترك المكان بكل تعقل وأم الصلاة في جامع ودنوباوي، وقد هجر المؤمنون المتمسكون بدينهم، أفواجاً وبالمئات الموقع، تاركين أحمد مع نفر لا يتجاوز عشرين شخصاً. بعد بضعة أيام من ذلك أرسل نميري ١٢ جندياً وشرطياً في الساعة ١:٣٠ صباحاً لاحتلال مكاتب الأنصار في منزل المهدي المجاور للقبة كتصرف منه لاستفزاز الصادق)[1].

يوافق هذا يوم الأحد ٧ نوفمبر. وفي يوم الجمعة ١٢ نوفمبر ١٩٨٢م صلى السيد

(١) نفسه

الصادق المهدي في مسجد الهجرة بودنوباوي وتحدث في الخطبة عن نيته عقد ١٢ حلقة لدروس حول السيرة النبوية في ضوء جديد، وبعدها ستين حلقة حول تفسير جديد لكتاب الله، وذكر الأسباب التي تدعو لذلك، وتحدث عن تاريخ الأنصار وتصديهم للعمل الدعوي حتى مع التضييق، وعن إنشاء هيئة شئون الأنصار وعملها متطرقاً للتضييق الأخير.

قال السيد الصادق:

(شجعنا على تكوين الهيئة ما وجدناه من دلائل متكررة وفي كل مجال لمبادرات الأنصار الذاتية، فالأنصار عندما وجدوا أنفسهم في محنة لم يحتاروا بل باشروا نشاطهم في كل موقع فصانوا وحفظوا بيت الإمام المهدي وصانوا مسجد الإمام المهدي وصانوا وحفظوا مسجد الهجرة بل شيدوا الخلاوى وأحيوا نار القرآن، كذلك فعلوا في جامع الكون بالجزيرة أبا وكذلك فعلوا في أقاليم السودان المختلفة، فشيدوا المساجد وحفظوا أنفسهم دون توجيه مركزي. هذا الوعي الأنصاري كان خيراً وبركة عليهم. وتكوين الهيئة اشتمل على الاعتراف بروح المبادرة والمبأدأة في الأنصار وقام بتنظيم جهدهم الذاتي المادي والمعنوي.

وسار هذا العمل ناجحاً متوسعاً ثلاثة أعوام.

وعندما عدت أخيراً من الخارج زارني النائب الأول لرئيس الجمهورية مهنئاً بسلامة العودة. فأوضحت له وجوه نشاطنا في مجال الأنصار، وذكرت له اهتمامنا بالبناء الذاتي للأنصار الروحي والثقافي والاقتصادي، وذكرت له أن ما نزمع إقامته من أنشطة كالمعاهد والمدارس والشركات والجمعيات التعاونية والبنوك ودار النشر تحتاج لترخيص من الحكومة، ولا نطالب بأكثر من حقنا كمواطنين فأرجو أن تصدق بها الحكومة إذا استحقت، فوعد خيراً.

ثم قابلته مرة ثانية رداً لزيارته ولبحث مشكلة طرأت هي مشكلة الحرب بين الرزيقات والمسيرية، وصحبني في المقابلة اثنين من زعماء القبيلتين للاطمئنان على الإجراءات المتخذة لتطويق الحرب واقتراح وسائل ناجعة لتحقيق السلام.

كان اللقاء الثاني يوم الاثنين أول نوفمبر ١٩٨٢ م، وقبل وداعنا له قال لي إنه سوف

يرد على مطالبنا يوم الأحد القادم وأن الرد المتوقع إيجابي.

وقبل أن يصل الرد بل وفي يوم الأحد نفسه ٧/ ١١ احتلت سلطات الأمن مكاتب الأنصار بالقبة).

وفي نهاية خطبته أكد السيد الصادق أن نشاط الأنصار سوف يستمر وخير المسئولين بين أمرين: *(أن يردوا الحق أو أن يوضحوا لنا أن من لا يؤيد الحكومة فلا مكان له في السودان ولا يسمح له بأي نشاط مهما كان مقيداً بلوائح وضوابط).*

ولاحقاً عقد النظام مهرجانا لمبايعة السيد أحمد المهدي إماما للأنصار، مع أن الأنصار كلهم كما سبق وذكرنا كانوا ينتظرون إثبات حقيقة مصير الإمام الهادي رسمياً، ومن ثم تشييعه ومواراته بالقبة مع بقية الأئمة قبل اختيار الإمام الجديد.

قال السيد غراهام إن الأنصار عرضوا على السيد الصادق الإمامة ورفضها (مستشعراً أن انتخاب زعيم روحي لأتباع المهدي يجب ان يكون أساسه صفات ذلك الرجل وقدراته أكثر من ارتباطاته الأسرية وموقعه العائلي)[1].

وهذا صحيح جداً، فالصادق ظل يؤكد أن الإمام لا يشترط أن يكون من آل المهدي، ولكن الحاسم في صد أي حديث عن اختيار إمام جديد حينها كان أن مصير الإمام الهادي لا تزال تحيط به الشكوك، وكان البعض يؤكد وجوده حياً بل ويتحدث عن لقائه في بعض الأماكن بالجزيرة العربية وغيرها.. إذا لم يتأكد الأنصار من استشهاد إمامهم ويصلوا عليه ويواروا فلا تنصيب لإمام جديد.

ولكن البيعة الأحمدية خططها جهاز أمن الدولة يومها، وقد فضح عميد الأمن السابق حسن بيومي في كتابه (جهاز أمن الدولة: أسرار جهاز الأسرار) تخطيطهم مع السيد أحمد للنيل من كيان الأنصار، بل وبرمهم من ضآلة مردود تلك المخططات ومن وعود صاحبهم السراب[2].

***

(١) توماس، سابق ص٢١٣

(٢) حسن بيومي، جهاز أمن الدولة: أسرار جهاز الأسرار

محاضرة في إسلام أباد ١٩٨٣

لقد تطرقنا إلى رحلة السيد الصادق من لندن إلى إسلام أباد في الجزء الأول من هذا الكتاب (بينج ماريال). وكان قد شارك في لندن بإلقاء محاضرة على اتحاد طلاب جامعة أوكسفرد أثارت ذكرياته عن الدراسة في اوكسفورد فكتب بطلب من السيد فؤاد مطر ورقته (ثلاث سنوات في خمسينيات القرن العشرين) واستغل رحلة الطائرة من لندن إلى إسلام أباد في يوم ١٣ مارس ١٩٨٣م لكتابة تلكم المذكرات.

وفي إسلام أباد التي كانت تتجه نحو استغلال الإسلام لتثبيت حكم الجنرال ضياء الحق، قدم السيد الصادق محاضرة بعنوان: المنهج الإسلامي للتنمية Development: the Islamic Approach، وذلك في يوم ٢٠ مارس ١٩٨٣م، وقد طبعت المحاضرة في شكل كتيب لاحقاً. عرف السيد الصادق في المحاضرة بالتنمية في الفكر العلماني (الرأسمالي والماركسي)، وناقش الإسلام والتنمية، والتنمية في العالم الثالث الآن، وما يقتضيه النهج الإسلامي.

ومن باكستان عاد السيد الصادق إلى السودان، ظل هناك حتى أغسطس حينما توجه إلى بريطانيا التي بقي فيها نحو شهر وعاد في سبتمبر ١٩٨٣م إلى السودان من جديد[1]. في وقتٍ ما بعد يوم ٨ سبتمبر لأنه حضر إعلان قوانين سبتمبر في بريطانيا ثم عاد للسودان، وعارضها وكان ما كان.

لقد عاد السيد الصادق من باكستان وهو مشفق من إجراءات الأسلمة التي اتخذها الجنرال ضياء الحق بدون أن تكون مصحوبة بالحرية والشورى اللتين يعتبرهما من فرائض الإسلام السياسية.

فقد عبر لاحقاً كيف أنه حينما وجد ذلك الاتجاه الضيائي فكر في الكتابة حول أسس التشريع الإسلامي، حتى دهمت التجربة في السودان.

وكان ضياء الحق منذ انقلابه في ١٩٧٧م قد خاطب العواطف الإسلامية لدى الشعب قائلاً (إن الإسلام ألهم المعارضة وأثبت أن باكستان ستبقى ما بقيت متمسكة

(١) توماس، سابق ص ٢١٢

بالإسلام وهذا ما جعلني أعتبر أن تطبيق النظام الإسلامي أمر ضروري للبلاد)، واتخذ العديد من الإجراءات كان آخرها قبل زيارة السيد الصادق لباكستان، ففي عام ١٩٨٢ عين مجلس شورى (بلا صلاحيات للتشريع ولا يمثل الشعب) بادعاء أن مثل هذا المجلس هو الأقرب للإسلام. وبالطبع فإنه لاحقاً وفي ١٩٨٤م أجرى استفتاء على الرئاسة قارناً بين التصويت له بلا أو نعم وبين التصويت للشريعة الإسلامية[١].

نقض السلام وتفجر الحرب مايو ١٩٨٣م

قال السيد الصادق:

(اتفاقية سلام أديس أبابا كانت الإنجاز الوحيد للنظام المايوي، أدت للسلام وقام الحكم الذاتي الإقليمي في الجنوب ومنذ بداية الأمر بدأت تظهر عيوب فيها أهمها:

- *أن الاتفاق كان مع نظام مطعون في شرعيته وفي غياب كلمة الشعب السوداني الحر مما يفتح الباب لنقضه فالشعب هو الضامن الوحيد.*
- *النظام الجديد يقتضي أن يترك الحكم الذاتي الإقليمي يمارس صلاحياته بحرية ولكن الديكتاتورية لا تعرف عضوياً توزيع الصلاحيات لأنها تقوم على وحدانية صاحب أو أصحاب السلطة فكان رئيس الجمهورية يتدخل في شئون الإقليم باستمرار.*
- *أهمل الجانب الاقتصادي في الجنوب وكذلك الجانب المالي.*
- *عدم استيعاب (أنيانيا) بالكامل في القوات النظامية والمدنية كما وعدت.*
- *نكران حق الجنوبيين في المشاركة في السلطة المركزية إلا وفقا لتقديرات النميري.*

ولهذا فإنه قد تتالت المحطات التي خرقت فيها الاتفاقية كالغبن حول عملية الإدماج التي أدت لتكوين أنيانيا الثانية في ١٩٧٥، وتكرار التدخل في شئون الحكم الذاتي، حتى انتهى بقرار تقسيم الجنوب بشكل ينافي الاتفاقية عام ١٩٨٣ م.

قبل ذلك مباشرة وفي عام ١٩٨٢ م قام حلف عدن الثلاثي بين ليبيا واليمن وأثيوبيا

(١) د عبد الرحمن الغالي تجارب تطبيق الشريعة في آسيا الوسطى، ورقة مساعدة بحثية غير منشورة.

برعاية المعسكر الشرقي وهو مضاد لاتفاقية الدفاع المشترك بين مصر والسودان برعاية أمريكية. هذه الخروقات أدت لتمرد الكتيبة ١٠٥ والتي لجأت لأثيوبيا وكونت في ١٦ مايو ١٩٨٣ م الحركة الشعبية لتحرير السودان بقيادة المرحوم دكتور جون قرنق وبدعم من حلف عدن.

هذا التمرد عرقل العمل في قناة جونقلي، وعملية استخراج البترول، وهدد الملاحة النهرية بين الشمال والجنوب وكان من أهم أسباب زيادة التذمر الشعبي والعزلة السياسية للنظام)[1].

وقال:

(وبينما لم يزد مقاتلي الأنيانيا الذين وقعوا اتفاقية أديس أبابا عن ثلاثة آلاف مقاتل ولم يستطيعوا الإيقاع بحامية أو مدينة فإن الحرب الجديدة التي دخل فيها النظام استطاعت الحركة حشد مقاتلين بعشرات الآلاف بتدريب وتسليح متقدم. واحتلوا منذ البداية مدنا وحاميات عسكرية، وعطلوا مشاريع التنمية وقطعوا الطرق البرية، والسكك الحديدية، والنقل الجوي،ومنحهم التعامل الأحمق والانحياز السافر الذي تورط فيه نميري حلفاء إقليميين ودوليين سافرين.

صحيح استفاد نميري من تحضيرات النظام الديمقراطي الذي سبق وأبرم اتفاقيات سلام ولكنه اتبع سياسات زودت التراكم الخبيث بين الشمال والجنوب بعوامل أعطت الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب بعدا أيديولوجيا ودوليا غيّر موازين القوى.

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه!)[2]

إذن وبحلول مايو ١٩٨٣م، كان النظام قد شد حبال القهر ونقض العهود شمالاً وجنوباً. أما في الشمال فقد مزّق أسس المصالحة الوطنية التي تلكأ في إعلانها ثم مضى عكس اتجاهها إلى أن وصل به الأمر إلى مواجهة مكشوفة مع القوى الأساسية في المصالحة في نوفمبر ١٩٨٢م فصادر بيت المهدي من جديد لعرقلة أو وقف نشاط

(١) من كتاب ميزان المصير الوطني في السودان

(٢) نفسه

الأنصار.

أما في الجنوب فقد نقض الدستور وتدخل بتقسيم الإقليم وغيرها من السياسات التي أججت حرباً ضروس لم تضع أوزارها إلا في منتصف العقد الأول من الألفية الجديدة، وأدت في النهاية إلى تقسيم البلاد بانفصال الجنوب. كما تناسلت عنها حروباً أخرى إما بالتقليد في دارفور أو بالتمديد في جنوب كردفان والنيل الأزرق، ولا زالت تنذر بويل وثبور.

السيد الصادق كان حتى وقتها وكما رأينا في خطبة الجمعة في نوفمبر ١٩٨٢م يحاول الحفاظ على الهامش الذي أتيح، ويعارض الاتجاهات الجديدة بتقليصه أو سحبه.. لكنما الأيام القادمة سوف تصل بالأمور إلى مرحلة مواجهة أشد، حيث سيعلن النميري قوانين شائهة يسميها الشريعة الإسلامية، ويعارضها السيد الصادق ومن معه بقوة، فيعود مرتادو السجون إليها!

وكانت عبارة محفوظة لأحد عسس السجن الأسود ببورتسودان تفيد هذا المعنى. إذ يروى أنه في إحدى إحالات السيد الصادق للسجن وكان ذلك في وقت متأخر من الليل، خرج الحارس منزعجاً من الجلبة في وقت سكون، فلما رأى العسكر يحضرون السيد الصادق، علق مطمئناً لأنه لا جديد، وكان من بعض أهلنا ذوي العجمة: (آاا، دة مرددين بتاع سجون!)